
مناظرات في تأريخ الأديب الجاهلي

دكتور

محمد حامد شريف

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمياط

الطبعة الثانية

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٩٧/١٣٠٨١

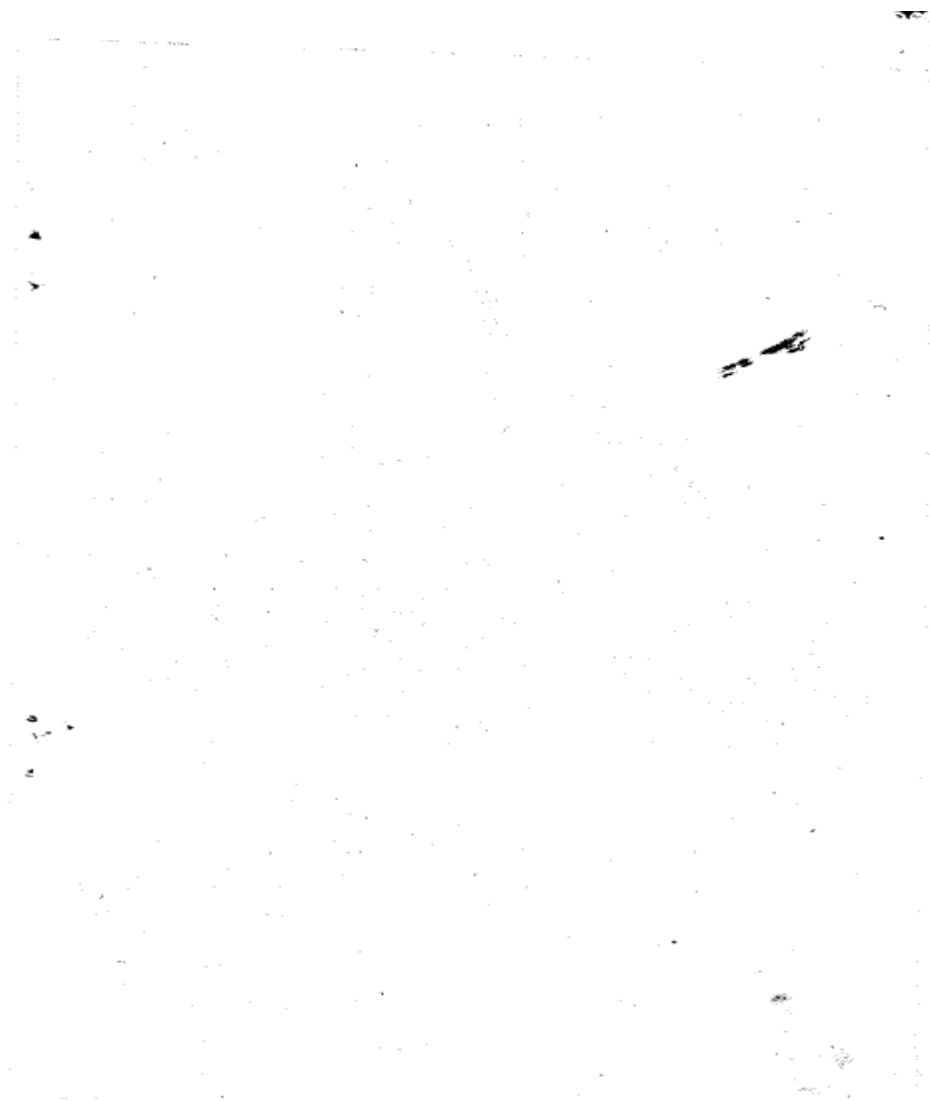
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-19-4616-1



(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوهَا
 إِلَى اللَّهِ فَاسْتَجْتَبَوْا لَهُ الذُّلُّ وَمَنْ يُخَفِّرْ الذُّلَّ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ
 يَكُنْ لَهُ شَافِعٌ مَا ظَلَمُوا بِهِ يُخَفِّرُونَ ۝ أُولَئِكَ جِزَاءُ مَنْ
 كَفَرَ مِنْ رَبِّهِمْ وَجِزَاءُ تَجَرَّى مِنْ قَتْلِهِمْ الْإِنْتِصَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا وَلَهُمْ فِيهَا أَعْرَاضُ الْعَامِلِينَ ۝)

سورة النجم والمؤمنين

(١) آل عمران آية ١٣٥ - ١٣٦ .



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حمداً لله وصلاة وسلاماً على خير خلق الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين ارتشفوا من رضاه، واشتقوا من آدابه، فكانت منهم وبهم خير أمة أخرجت للناس، وبعد:

فقد نشاء هل للأدب تاريخ؟ وما قيمته وأثره...؟!

نعم للأدب تاريخ، فهو كائن حي متطاول العمر، فلا بد أن نؤرخ له، وأن نعرض لحالته من قوة أو من ضعف وأن نحيط بالمؤثرات العامة في حياته من بيئة طبيعية، وحياة اجتماعية، وحرية أو عبودية وثقافة أو جهالة، وحرب أو سلم ... لنعرف الينابيع الأولى التي استقت منها النفوس والعقول، وأن ندرس الحركة الفكرية في كل عصر ومدى تأثيرها في الأدب والأدباء، وأن نعلم خصائص كل أديب وخصائص الأدب في كل بلد أو إقليم...

ولو نظرنا إلى العصور الأدبية كلها لأدركنا آثار تلك الأدباء والعلماء ولوقفنا على تلك المؤثرات في نتاجهم وكيف كانت صدى لمجتمعاتهم، وبهذا نوفر الجهد الذي كان مضطراً كل منا لأن يبذله لو انفرد بالبحث والدرس وهيئات أن يتسع له وقته أو تمكنه وسائله.

إذن: من حق الأدب علينا أن ندرسه لأنه ميزة تميز بها الإنسان، ولأنه لغة الروح وترجمان القلب .. وهو بعد وسيلة بلاغ الرسل إلى العباد

والإرهاص الذي يتقدم ثورات الأمم ضد عسف طال أو خمود استتال،
فتنتفلت من قيودها فتشب على أنغام الأدباء وقريض الشعراء في رمز أو
تصريح^(١).

وحرصنا على تاريخ أدبنا واعتزازنا به واستمدادنا منه هو حرص على
تاريخنا وماهيتنا العربية، فالأدب صلة ماضينا، بحاضرنا، وأفكار آبائنا
وأجدادنا تسرى في دمائنا وأعصابنا، واعتزاز بقوميتنا التي تُعَدُّ اللغة
وما فيها من ثمار العقل والقلب من أعظم أسسها. ولولا محافظتنا على
أدبنا، واعتدادنا بتاريخه لمُحِيت لغتنا وتقوضت قوميتنا، وتسلمت علينا
لغة أخرى، فاستعبدت عقولنا وأفكارنا، وصيرتنا جسماً بلا روح، وقلباً
بلا عاطفة. وعبودية العقول والأفكار أشد خطراً من عبودية الأجسام
والحطام، لأنها عبودية لا يُرجى لها دواء، ولا يبرأ لها داء.



١- راجع الحياة العربية من الشعر الجاهلي د/ أحمد الحوفي ص ١٨ - ١٩ ط دار
القلم بيروت.

نبذة في العصور الأدبية

اصطلح الكاتبون في تاريخ الأدب على أن يستعملوا كلمة «العصر الأدبي» للدلالة على المدة الممتدة من الزمن ، والتي تبدأ ببداية واضحة وتنتهي بنهاية مميزة ، وهم يبدأون العصور الأدبية بعصر الجاهلية أو عصر ما قبل الإسلام ، والمعروف منه هو نحو قرن ونصف تقريبا ، . . ثم يأتي عصر صدر الإسلام وهو يبدأ بظهور الإسلام وينتهي بقيام دولة بني أمية ، وبهذه الباحتين يجعل العصر الإسلامي يمتد حتى نهاية دولة الأمويين وذلك سنة ١٣٢هـ . ليشمل صدر الإسلام وبني أمية ، بيد أني أميل إلى فصل المهدين ، حيث أقام معاوية دولته على شيء خالف به روح الإسلام وتعاليمه ، فقد تولى الحكم بطريق الخداع والخيانة نصبر بنو الإسلام وابن عمه ، ثم أقام نظام الحكم على الورثة وهو بهذا قد تجاهل مبدأ الشورى وهو مبدأ نصت عليه الشريعة وأمرت به المسلمين ، وقد اهتم العصر الأموي بالصراعات الحزبية والتي قامت على أثر تولى معاوية الحكم والخلافات التي قامت بينه وبين الامام على سنة ٤٠هـ ولم ينته الصراع بتولى معاوية بل ظلت قائمة حتى آن لها أن تنفجر بتولية يزيد بن معاوية والذي تولى الحكم عن أبيه ورائه ، وكان أهم هذه الأحزاب (١) :

أولا - الحزب الأموي الحاكم : وكان يتزعمه معاوية الذي استقر له الحكم

(١) راجع الأفاقي ١٧ / ٢١٣ وما بعده .

- من (٤٠ - ٦٠ هـ) ثم ابنه يزيد ثم معاوية الثاني (٦٤ هـ) ومات بعد ولايته
بعدة أشهر انتقلت إلى مروان بن الحكم وظلت في يديه حتى سقوط الدولة ،
وكان من أبرز ما يميز سياسة هذا الحزب التمسك بوجوه عام فهو يتمسك
للعرب على الموالي ولبنى أمية على بني هاشم ولقد عرف الخلفاء والأمراء
كيف يضرمون العدوات بين البطون والعشائر ويشيرون الأحقاد ، يتخذون
من ذلك وسيلة لإضعاف خصومهم ، وقد أثار تمسكهم ضد الموالي حفيظتهم
وجعلهم يحقدون على العرب ، فقد بلغ من تمسك الأمويين أنهم كانوا
لا يتزوجون من الموالي ولا يزوجون لهم حتى لا يختلط الدم العربي بغيره
من الأجناس .

ثانياً - الحزب العلوي أو الشيعي :

- عرف هذا الحزب على نحو واسع (كمقيدة) بعد مقتل الحسين في
كربلاء ، وساد في الكوفة والعراق وخراسان أن النبوة ملك ينبغي أن
يورث ولا يرثه إلا الأقربون وعلى وبنوه أقرب الناس وأحقهم بوراثة
وكان أكثر سكان العراق من الموالي ، وقد وقف العلويون خلف علي في
حربه ضد طلحة والزبير في معركة الجمل كما ناصروه ضد معاوية في معركة
صفين ، وهدأت الشيعة بعد مقتل علي وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية
ولكنهم ثاروا لسب الإمام علي على المنابر فثار جماعة منهم فقبض عليهم
(زياد بن أبيه) وإلى الكوفة وبعث بهم لمعاوية فقتل بعضهم وفيهم (حجر
ابن عدي) وأطلق مراح الباقين بعد أن تبرأوا من علي وتولى يزيد

الخلافة بعد معاوية وراثة وامتنع الحسين عن مبايعته كما امتنع ابن الزبير (عبد الله) وجماعة من المسلمين ، وأرسل أهل الكوفة إلى الحسين يطلبون منه أن يأتيهم وله عليهم النصرة ، وخرج الحسين في نحو ثمانين رجلا من آله وأهل بيته ، وبينما هو في طريقه إلى الكوفة كان ابن زياد قد أوقع بسلم بن عقيل بن عم الحسين الذي أرسله الحسين ليستوثق من أهل الكوفة ، فقتله يزيد وصلبه ، وتفرق عنه أهل الكوفة وخذلوه ، وأرسل يزيد جيشا بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص فلقى الحسين في كربلاء ودارت معركة دامية غير متكافئة قتل فيها الحسين وجميع من معه إلا النساء وبعض الأطفال ولم ينهض أهل الكوفة لنجسده وجماله الذين استفدوه والعجيب أن الجيش الذي كان يقاتله كان من أهل الكوفة (١) .

وبعد مقتل الحسين هبوا يتلاومون لخدلائهم وأعلنوا التوبة فسموا بالتوابين ، وأصروا على النار اقتل كربلاء فخرج جماعة بقيادة (سليمان بن سرد) ولكنهم هزموا في عين الوردة ٦٥ هـ وقتل سليمان ، ثم خرج جماعة بقيادة (الختار الثقفى) زعيم الكيسانية ودعا لابن الحنفية فاستولى على الكوفة وهزم ابن زياد وقتله وانتقم من قتلة الحسين ولا سيما ابن أبي وقاص وشمر بن الجوشن ، ولكنه هزم وقتل ٦٧ هـ على يد المهلب قائد جيش مصعب بن الزبير وقد توزعت الشيعة إلى فئول متعددة أهمها :

الكيسانية : أتباع الختار الثقفى الذى دعا لمحمد بن الحنفية وانخذ منه إماما

هو المهدي المنتظر .

الزيدية : أتباع زيد بن علي بن الحسين وهم أكثر الشيعة قساعاً وادعاءً بالإمام عندهم محصور في أبناء علي من فاطمة والإمام عندهم ليس مدعوماً .
الرافضة : وهم فرقة منشقة من الزيدية وخرجوا على زيد لعسدم قوله بتكفير أبي بكر وعمر ، وعلى العموم فالشيعة تقصر الإمام في أبناء علي .

ثالثاً - ومن الأحزاب الخطيرة حينئذ (الخوارج) :

وقد ظهروا عقيب مهزلة التحكيم وخرجوا على علي وقالوا بكفروه لأنه احتكم إلى غير الله ، وحاربهم علي في معارك كثيرة أهمها معركة النهروان التي استأصل فيها ~~كثيراً~~ منهم ولذلك دبروا لقتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص لأنهم رؤس الفتنة في نظرهم ونجح (عبد الرحمن بن ملجم) في قتل علي بينما فشل صاحباه (البرك بن عبد الله وعمرو بن بكر النخعي) في قتل صاحبه وظلوا مصدر إزعاج لبني أمية وسبوا (للحجاج) واليهام على العراق خرجاً بالنار ولولا انقسامهم على أنفسهم لكان للتاريخ وجه آخر .

والخلافة عندهم حق لكل مسلم مادام متصفاً بالعلم والعدل والزهد لا فرق بين عربي وعجمي أو حر وعبد والخلافة شوري ، ورغم قساعهم في تلك المبادئ التي تملو على التعصب للجنس فاتهم بالغوا في تكفير خصومهم والمسلمين وعدوا دارهم دار حرب قتالهم وسي نساءهم وأخذ أموالهم ولم يستحلوا الصلاة معهم وكان أشدهم (الأزارقة) أتباع نافع الأزرق وهي أكبر الفرق وأقراها .

رابعاً : الزبيريون :

وم أتباع الزبير بن العوام الذي خرج على عبد التحكيم بسدد أنه لم يشارك في معركة الجبل وكان ابن الزبير يشارك في التأييد على فيقال إنه حث حالته السيدة عائشة على الخروج إلى البصرة وحرض أباه على القتال وكان عبد الله من ذوي الطمع والدهاء وكان معاوية يخشى منه على ابنه (يزيد) وكان يحذره منه بقوله : إنه يحتم لك جثوم الأسد ويرأوك مراوغة الثعلب فإن أمكنته الفرصة وثب فإن هو فعلها وظفرت به فقطعه إرباً .

وقد وجد عبد الله استجابة له في مكة والمدينة ولا سيما بعد مقتل الحسين لجرد يزيد جيشاً لقتاله بقيادة (مسلم بن عقبة المري) فأوقعه بالمدينة ثم زحف إلى مكة ، ولولا موت يزيد ، ونشوب الخلاف بين الأمويين على الخلافة لهُزم عبد الله إلا أنه وجد الفرصة ليمتد بحصاره إلى العراق والشام ومصر واليمن فلما تولى تولى (مروان بن الحكم) الخلافة أخذ يستجمع الأنصار ويستجلب الأعوان من القبائل الموالية واستطاع أن يستخلص الشام ومصر من الزبيريين وجاءه عبد الملك بن مروان ، فالتقى بمصعب بن الزبير فقتله ودخل الكوفة سنة ٧٢ هـ ولم يبق إلا عبد الله بن الزبير بمكة فكلف به الحجاج ابن يوسف الثقفي الذي اتجه إلى مكة لحاصرها ثمانية أشهر ، وضرب الكعبة بالمنجنيق حتى احترقت ، وحتى تخلى الناس عن عبد الله فقتل سنة ٧٣ هـ وصلب وانتهت تلك الحركة .

- وكان من أهم العوامل التي ساعدت على هزيمة الزبيريين مايلي :
- كانوا يرون الخلافة محصورة في قريش فهي حق لا ينازعهم فيها منازع ، ويرى عبد الله أنه أحق الناس والقرشين خاصة لما سبق .
 - وكان عبد الله بخيلا فلم يستطع استجلاب الأنصار وتأليف القلوب حوله كما يفعل الأمويون .
 - وأيضا : قد أضعفت ثروة المختار الثقفي جناح الزبيريين ، وكذلك عدم تأييد الشيعة لهم وتشكيكهم في نوايا عبد الله ، وانصراف الخوارج عن نصرته لما كان بينهم من اختلاف في الرأي والمقيدة .
- أما العصر العباسي الأول : فهو يبدأ من قيام دولة العباسيين سنة (١٣٢ هـ) بإعلان أبي العباس السفاح عن نفسه في خطبته على منبر الكوفة (١) وهذا العصر ينتهي باستيلاء بني بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ .
- وأما العصر العباسي الثاني : فيبدأ من السنة المذكورة (٣٣٤ هـ) والتي وافقت خلافة المطيع (أبو القاسم الفضل بن المقتدر وقد خلع نفسه بنفسه في بغداد سنة ٣٦٣ هـ) ، وينتهي هذا العصر بسقوط بغداد في يد التتار وذلك عام ٦٥٦ هـ وهذا على أرجح الآراء .
- وهناك من يجعل العصر الثاني عصرين أولهما : يبدأ سنة ٣٣٤ هـ وينتهي بانتزاع السلاجقة (الأتراك) الحكم سنة ٤٤٧ هـ ، وفي هذه المرحلة قوى شأن (١) راجع خطبة السفاح وخطبة عمه داود بن علي في الضبري ٨١/٦ - ٨٤

الشعبة ، ونضجت العلوم وكثر التأليف ، وقد عاصرت الدولة الفاطمية في مصر والشام هذه المرحلة .

وثانيتها : يبدأ منذ تولي السلاجقة الحكم حتى سقوط بغداد في أيدي التتار المغول سنة ٦٥٦ هـ وفي هذه المرحلة قوى مذهب أهل السنة ، وظهرت الكتب الجامعة التي يمكن أن نسميها موسوعات أو دوائر معارف ككتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي ومعجم البلدان له أيضا ، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد كما ظهر كتاب الأنساب للسمعاني وبيتمة الدهر للشمالي والخصائص لابن جني وغير ذلك من المؤلفات التي أثرت الحياة الأدبية في العصر العباسي الثاني .

وقد انقسمت الدولة الإسلامية في العصر العباسي الثاني إلى دويلات واستقلت كل منها بشؤونها الداخلية وإن كان بعضها مازال يعترف اعترافا رسميا بالخليفة العباسي ، وهذا الانقسام الذي آلت إليه الدولة الإسلامية وإن كان أضعفها من الناحية السياسية فإنه أفادها من الناحية العلمية فقد جعل كل دولة تسابق الأخرى في تشجيع العلماء والعمل على النهضة الأدبية وحث الكتاب على التأليف - كما مر - .

الدولة السامانية :

قال الدولة السامانية في تركستان وخراسان كان من أشهر ملوكها نوح بن منصور الذي أنشأ في بخارى مكتبة كبيرة انتفع بكتبها كثير من الناس .

والدولة البرية : في المراق وخراسان وفارس كان أكثر وزرائها من الأدباء المشهورين كابن العميد والعماد بن عباد ، ومن أشهر ملوكها عند الدولة ابن بويه الذي ألف له أبو اسحاق السبائي كتاب (التاجي) في أخبار بني بويه وألف له أبو علي الفارسي كتاب الايضاح في النحو .

والدولة الحمدانية : في حلب والموصل كانت قبله الأناضول ومحاط رجال الأدب ومن أشهر رجالها سيف الدولة بن حمدان الذي غرض بحجسه بكثير من العلماء والشعراء والأدباء وفي مقدمتهم المتنبي وابن غالبية النحوي وأبو فراس الحمداني .

والدولة الاخشيدية : في مصر ودمشق وكلية أخشيدي من ألقاب الأمراء عند قدماء الفرس وقد منح الخليفة الراضي عام ٣٢٦ هـ هذا اللقب على مؤسس هذه الدولة محمد بن طنج ، وتوفي الاخشيد في آخر عام ٣٣٤ هـ - ٩٤٦ م وقد خلفه اثنان من أبنائه ولكنهما لم يحكما إلا بالاسم فقط فالإمامان الحقيقي كان في يد العبد الخصى الجبشي كافور الذي ولاه الخليفة على مصر بعد وفاة ولدي الاخشيد .

والدولة الفاطمية : في مصر قد أنشأت داراً للكتب وأنشأت الجامع الأزهر وجعلته مدرسة تقوم على نشر المذهب الشيعي وكانت لهم عناية خاصة بالفلك .
والدولة الأيوبية : التي خلفت الدولة الفاطمية في مصر والشام وقد عملت من جانبها على نشر مذهب أهل السنة والفضاء على مذهب الشيعة وزادت عن

السابقين في تقريب العلماء إلى مجالسها والاعتماد عليهم .
ومع اختلاف تلك الدويلات في الجنس واللغة القومية فقد حرص الجميع
على أن تكون لغة البلاد الرسمية في التعليم والسياسة والقضاء هي العربية
الفصحى ولم يتجاوز آدابهم العربية طبعها الأصلية من ناحية البلاغة وحسن
الآداء والذوق العربي السليم وأن اقتضت طبيعة الحال أن تصطبغ تلك الآداب
بصبغة موضوعية قومية نتيجة اختلاف البيئة وهكذا كانت الدويلات حتى سقطات
بغداد في أيدي التار المغول سنة ٦٥٦ هـ .

عصر الدويلات أو الدول المتتابعة :

وهذا العصر إنما كان نتيجة طبيعية لما سبقه من تقسيمات في العصر السابق
وقد ظلت الدويلات هكذا حتى سنة ١٢٢٠ هـ وبتولى محمد علي حكم مصر بدأ
عصر جديد وهو :

عصر النهضة : وهو يبدأ من السنة المذكورة وبتولى محمد علي حكم مصر .

والجدير بالذكر أن هذه الفواصل التي يذكرها المؤرخون بين عصور
الآداب لا تعني أبداً أن الفواصل محددة أو أن أحوال الآداب تتغير بين يوم
وليلة أو بين لحظة وأخرى ، وإنما هي فواصل على وجه التريب .
فالعصور الأدبية إنما تتداخل وتتجانج ، والإنسان الآداب لا يستطيع - وهو
فرد - أن يتغير أدبه أو ملاحظ كتابته بين يوم وليلة ، فن باب أولى لا تستطيع
البيئة الأدبية التي تضم بين أجنحتها العدد الكبير من الآداب أن تتغير ملاحظها

في وقت قصير أو عقب حادث أو مشابه ذلك .

وقد حدث المؤرخون أن الأمويين قد أسأوا المعاملة مع غير الجنس العربي كما أسأوا المعاملة مع العلويين ، ولعل هذا كان من أهم الأسباب التي فوضت حكم بني أمية ، وأنشأت الدعوة ابنى العباس وكان في مقدمة الداعين لهذا هو أبو مسلم الخراساني (ناصر الموالى) كرد فعل لما اتجه إليه الأمويون من عصبية عربية ونزعة قومية ولما لاقاه هؤلاء الموالى من استخفاف وأزدراء في عصر الأمويين واستطاع العباسيون أن يسقطوا دولة الأمويين وأن يفتتحوا عهد الدولة العباسية وبمضوا بها في طريقها خلال العصر العباسي الأول .

وقد بدأ تدخل الأتراك في الحكم والإدارة منذ بداية العصر العباسي الأول وذلك بسؤال (الخليفة المعتصم) في العرب ، الأمر الذي دعا لأن يخرج أكثر من كان موجودا منهم في ديوان الجنود والجيش ووضع مكانهم جنودا من المماليك الأتراك الذين أرادوا أن يضربوا العرب من ناحية والفرس كذلك من ناحية أخرى ، ونتيجة لهذا الأمر اعتبر الجنود الأتراك بمكانتهم أولا ثم اغتروا بها ، فسيطروا أيديهم في شئون الدولة يتحكمون فيها ويصرفونها حسب أهوائهم لا حسب ما تقتضيه المصلحة العامة ثانية .

وبلغ بهم الاستبداد والتحكم حتى شغل الخليفة نفسه فهم يمزلون هذا ويقولون ذلك ثم يزلون من يريدون وبالطبع يختارون من يكون طوع أم رهم أو رهن إشارتهم فنزلوا به كانه الخلافة وهبتها إلى الحضيض ، وصار الخليفة ألعوبة في أيديهم حتى صدق عليه قول القائل .

وتؤخذ بأسمه الدنيا جميعا . وما من ذاك شيء في يديه

فلم لا يتبل هؤلاء الفرس هذا الوضع المختل في الدولة ، لكي يهدوا
لإستعادة مجد فارس ، وسلطان الأكاسرة ، بأن ينشئوا دولاً هنا وهناك ،
كالنولة البويهية في فارس ، والنولة السليمانية في خراسان ، وليرتقوا يوماً
يجمعون فيه مجموعهم على بغداد ، لينزعوا السلطة من أيدي الأتراك
ويتحكمون في الخلقاء كإشامون .

وهؤلاء العلويون الذين يتسبون إلى الإمام علي ؛ والذين مازالوا يذكرون
مصرع الإمام الشهيد ويذكرون كيف خرج معاوية على بيعته وكيف كاد له في
موقف التحكيم ، ويذكرون أنهم أحق بالخلافة وأولى بها حتى من أبناء عمومتهم
العباسيين .

لقد رأى هؤلاء العلويون أن النولة لم تعد مقصورة على سلطان هؤلاء
العباسيين ، بل استأسد فيها غير العباسيين ، فلم لا ينتقل الأمر إليهم وقد خرج
من أيدي أبناء العمومة ؟ أليسوا أحق به من هؤلاء الغرباء ؟ وإذا كانوا لم
ينقطعوا فيها مضي عن المطالبة بحقوقهم في الإمامة والخلافة فإن الفرصة الآن
أمامهم ذهبية ، فليزيدوا من سعيهم نحو تحقيق هدفهم ونيل مطالبهم . فأنشأوا
إمارات لهم في اليمن والحجاز وطبرستان على قدر ما استطاعوا ، وأقبلت جماعة
الفاطميين بكثرة عددهم فأنشأوا دولة كبيرة شملت عدة أنظار في أفريقيا
وآسيوية .

ولم يقتصر النزوع إلى الانفصال عن الخلافة والاستقلال بالحكم والإدارة على ولاية الأقطار والأمنار والأقاليم ، والفرس والعلويين بل بلغ الأمر من ضعف العاصمة وتضعف شأن الخلافة ؛ وتساير العناصر غير العربية ؛ إن وجد رؤساء القبائل العربية فرصة سانحة أمامهم أيضا ؛ فلم لا يفتخرونها ويدنقون بها ينزلون به من يتقاع وجهات ؟

الكل طامع ؛ والكل متطلع إلى الإمارة والظروف مساعدة على التنسيق والتفريق والفساد يلد الفساد والأطماع تحرك الأطماع ، فلتحول الدولة إلى دول ، والخلافة إلى خلاقات ؛ والإمارة الكبرى إلى إمرات ، والإمامة العظمى إلى إمامات .

وهكذا تفتت السلطان العريض ، وصارت الدولة العباسية في أواخرها غيرها في أوائلها ، صارت لفظا على غير معنى . إن ساعد الشكل الخارجى على إطلاقه فإن مواطن الحقائق تنادى بأعلى صوت إنه لم يبق لهذا العنوان إلا رسمه ولم يبق من هذا الكتاب الضخم إلا اسمه .

وحينما كان المصير العباسى الثانى يشهد فى المشرق ما رأينا ، كانت الدولة العربية فى الأندلس تشهد قريبا منه ، حتى رأى أمراء الأندلس أنهم ليسوا أقل شأنًا من الخليفة ، فصاروا يلقون على أنفسهم لقب الخليفة ولقب أمير المؤمنين وكانهم يريدون أن يقولوا : وأى فرق بين ما هنا وما هناك . لكن أمرين جليين بقيا ؛ لم يتفرقا ولم يتعزقا ؛ بل سلم لهما جلالهما وسلطانهما

هذان الأسران هما العقيدة والقيمة . فقد بقي المجتمع العربي تعلوه كلمة الإسلام وتقوده عقيدته ، وإن كثرت في بعض جوانبه انحرافات أو سيئات أو موبقات ، وكذلك بقيت هذه الدول والإمارات في المشرق والمغرب تناف على اللغة الفصحى ، وتتخذها لغة الدولة والحكم والإدارة .

وإذا كان الكثير من الإمارات التي نشأت ، أو كانت تابعة فانتقلت ، لم تدوم وقتاً طويلاً ينهياً معه أن يصطبغ الأدب فيها بصبغة إقليمية أو بيئية فإن بعض هذه الإمارات قد أمتد به الزمن حتى أثر في الأدب ، وصيغه بصبغة خاصة تلائم ما جد أو تجدد في هذه الإمارات من نظام خاصة ، أو أوضاع متميزة تتعلق بالأمور الإدارية أو الاجتماعية أو الثقافية أو العقالية .



1. The first part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that a knowledge of the past is essential for a full understanding of the present and for the development of a sound policy for the future. The author points out that the study of history is not only a means of learning about the past, but also a means of learning about the human mind and the human condition.

2. The second part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that a knowledge of the past is essential for a full understanding of the present and for the development of a sound policy for the future. The author points out that the study of history is not only a means of learning about the past, but also a means of learning about the human mind and the human condition.

3. The third part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that a knowledge of the past is essential for a full understanding of the present and for the development of a sound policy for the future. The author points out that the study of history is not only a means of learning about the past, but also a means of learning about the human mind and the human condition.

4. The fourth part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that a knowledge of the past is essential for a full understanding of the present and for the development of a sound policy for the future. The author points out that the study of history is not only a means of learning about the past, but also a means of learning about the human mind and the human condition.

5. The fifth part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that a knowledge of the past is essential for a full understanding of the present and for the development of a sound policy for the future. The author points out that the study of history is not only a means of learning about the past, but also a means of learning about the human mind and the human condition.

الفصل الأول

الأدب نشأته وتطوره

يسجل الأدب مظاهر الحياة وخواطر النفوس ومشاعر المجتمع لأنه شعاع الحس المرفف، وعبير النفس الصافية، والقيس الألهي في كل قلب والجانب الروحي من كل إنسان، وهو في كل أمة دليل على سمو روحها، وقوة إنسانيتها، وكل أمة حرمت منه تبلدت مشاعرها، وأجذب خيالها، واستبدت بها المادية التي تُلحقها بعالم الحيوان، وهو وسيلة الاستمتاع بجمال الحياة والطبيعة، لأنه مسرة النفس، ومتنفس الحزين. يهدد ألام الحياة بأنغامه ويرسم المثل العليا إليها بأحلامه:

ولولا سبيل سببها الشعرُ مادي بناءً المعالي كيف تُبنى المكارم
وكانت رسالة الأدب العربي في كل عصر من عصوره: تجاوباً مع البيئة البدوية وغيرها من البيئات المتحضرة فكان أصدق صورة لها، وأجمل نفحة استروحت لها خواطرها: وتفاعل مع الحضارة في ظلال العصور الإسلامية، فكان صدى لمدنياتها، وانعكاساً لثقافتها، ومنجلاً لأحلامها ووساوسها.

والأدب يصور جمال الحياة، ومباهج الطبيعة، ومشاهد الجمال، ومفاتيح الحسن، ومجالس الأنس، ويَجْمَل ما قبح من الحياة، وينير ما أدلهم من الخطوب ويهدد ما فدح من الآلام، وينقل ذلك إلى النفوس فتستروح له الخواطر المكدودة، وتخف إليه القلوب البائسة وتحيا عليه الآمال المحتضرة، فيحيل اليأس أملاً، والوحشة أنساً، والحزن مسرة، والضيق إنطلاقاً وانفراجاً!!

والأدب من الفنون الرفيعة التي يعبر كل منها بطريقته الخاصة عن مظاهر الحياة وخوارج النفوس، تُهز المشاعر بجماله وروعته. وهو يمتاز بالجمع بين اللحن في الموسيقى، والفكرة في النحت، والجمال في الرسم، ويزيد عن هذه الفنون بالإفصاح والإبانة، والنهوض بأكثر مهام الحياة الثقافية والاجتماعية والتهديبية.

وهو يصور ما في النفس من فكرة أو عاطفة تصويراً جميلاً، ثم ينقل هذا التصوير إلى نفوس القراء وأذان السامعين، فيؤثر فيهم، ويهز خواطرهم، ويوقظ مشاعرهم، ويعينهم على فهم الحياة، ويوجههم إلى أرفع المثل وأنبل الغايات!!

والخلاصة: أن الأدب فن الإبانة عما في النفس، والتعبير الجميل عن مكنون الحسن، والتصوير الناطق للطبيعة، والتسجيل الصادق للحياة ومظاهر الكون ومشاهد الوجود.

الأدب في اللغة:

الأدب - يسكون الدال - الدعاء ومنه (المأذبة) بضم الدال وفتحها وفي الحديث عن ابن مسعود: إن هذا القرآن مأذبة الله في الأرض فتعلموا من مأذبتة. والمأذبة والأذبة صنيع الدعوة أو العرس يدعى إليه الناس وأدب يأذّب أدباً - من باب ضرب - دعا إلى الطعام، فهو أدب كما قال طرفة:

نحن في المشتاه ندعو الجفلى لا ترى الأدب منا ينتقر (١)
والجمع أدبة ككتاب وكتبه، قال على كرم الله وجهه: أما إخواننا بنو
أمية فقادة أدبة (وآدب القوم على الأمر: جمعهم عليه، وفي الجمع دعوة.
قال أبو ذؤيب الهذلي:

وكيف قتالي معشرأ يادبونكم على الحق ألا تأشيوه بباطل (٢)
والأدب كذلك الأمر العجيب كالأدبة.

قال الأصمعي: جاء فلان بأمر أدب أى عجيب مدهش، أو هو العجيب
كقول منظور بن حبة الأسدى يصف أربى الناقة أى سرعتها ونشاطها:
(حتى أتى أربىها بالأدب) أى بالعجب.
أما الأدب -بفتح الدال- فهو الذى يتأدب به الأديب من الناس، أو هو
الظرف وحسن التناول. أو هو كل رياضة محمودة يخرج بها الإنسان فى
فضيلة من الفضائل. ويقال أدب وأرب فهو أديب أريب، وتأدب واستأدب
والبغير المذلل أديب (٣).

متى وأين وردت كلمة أدب؟

لم ترد كلمة أدب -بفتح الدال- فى القرآن الكريم، على الرغم من
خففتها. وعلى الرغم من ورود كثير من آيه فى معناها، وشدة اتصالها
بأغراضه وموضوعاته، ولم ترد كذلك فى اللغات السامية الأخرى

١- الجفلى محررة: الدعوة العامة. النقرى كجزمى الدعوة الخاصة.

٢- تأشيوه: تخططوه.

٣- واللسان والقاموس وشرحه، مادة (أدب).

كالسريانية والعبرية التي تعدّ من أخوات العربية، فيما يقرره الباحثون^(١). ولكنها ترددت بنظيرها أو مادتها في بعض ما نقل إلينا من آثار الجاهلية، كما في حديث عتبة بن ربيعة مع ابنته هند والتي قالت له: إني امرأة قد ملكت أمرى فلا تزوجني رجلاً حتى تعرضه علي، فقال لها: قد خطبك رجلان من قومك ولست مسمياً لك واحداً منهما حتى أصفه لك ثم قال في وصف الرجل الآخر: (يؤدب أهله ولا يؤدبونه إن اتبعوه أسهل بهم وإن جانبوه توغر عليهم شديد الغيرة) وكان مازدت به قولها: (وإني لأخذه بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلة تلقّتي ...). قال: (ذاك أبو سفيان ابن حرب)^(٢). وفي كتاب النعمان بن المنذر إلى كسرى مع وفد العرب: وقد أوفدت أيها الملك رجلاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وأدابهم.

وفي كلام علقمة بن علاثة أنام كسرى: (فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك، بل لو قسمت كل رجل منهم، وعلمت منهم ما علمنا لو جدت له في أبائه أنداداً وأكفاء كلهم إلى الفضل منسوب وبالشرف والسوء دد موصوف وبالأرى الفاضل والأدب معروف)^(٣)، وقال الأعشى: جروا على أدب منى بلا نزق ولا إذا شمرت حرب بأغمار^(٤).

١- الأدب الجاهلي لطلح حسين ص ٢٠.

٢- الأماشي لأبي علي القالي ص ١٤ ط ٢/ القاهرة.

٣- العقد الفريد ج ١.

٤- النزق: الرعونة والطيش. الأغمار واحداً الغرير الذي لم يجرب بعد لحدائق سنن - الديوان ص ٨٩ ط بيروت.

ويقول الشاعر المخضرم سهم بن حنظلة الغنوي:
لا يمنع الناس مني ما أردت ولا أعطيهما ما أرادوا حسن إذا أديا
ونلاحظ أن الكلمة في هذه النصوص مستعملة في المعنى الخلقى من
تهذيب النفس وترقيق الطبع، وتحلية الخلق، واتباع الطريقة المحمودة
والعادة الحسنة وكريم الأخلاق وموروث الشرائع.
وجاء الإسلام فاطردت الكلمة في مجراها، وترددت في كثير من
النصوص على لسان النبي ﷺ وصحابته. فقد ورد أن الرسول ﷺ كان
يخاطب وفود العرب على اختلاف لهجاتهم التي لا يهتدى إلى معرفتها
بعض العرب، فيفهم عنهم ويفهمهم، حتى قال له على رضى الله عنه:
يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم الوفود بما لا نفهم أكثره،
فقال الرسول: "أدبني ربي فأحسن تأديبي وربيت في بني سعد"، والتأديب
هنا معناه التعليم.
ونظراً لأن الكلمة لم ترد في القرآن الكريم، ولندرة ورودها في الأدب
الجاهلي. وعدم وجودها فيما عرف من اللغات السامية. كانت هذه
النصوص الجاهلية موضع شك وإرتياب عند كثير من اللغويين والباحثين
والمستشرقين.
كما كان الحديث النبوي: "أدبني ربي فأحسن تأديبي"، موضع التردد

وعدم الأطمئنان عند بعضهم^(١).

وقد حذا هذا بهم إلى أن يلتصقوا للكلمة أصلاً بالتمثّل أو الفرض، لأنها لم تنبع في رأيهم إلا في العصر الأموي، لهذا تعددت الآراء:
١- يرى بعضهم أنها نُقلت عن بعض العرب من غير القرشيين في العصر الإسلامي ثم ذاعت ونقلت من المعنى الخلفي إلى المعنى الاصطلاحي في العصر الأموي^(٢).

٢- وهناك من يفترض أنها دخلت العربية من لغة الشومريين الذين عمروا جنوبي العراق من أقدم العصور، وأخذها عنهم الساميون الطارئون عليهم، إذ كان معنى (أديب) عندهم (إنسان) ثم نقلت عندهم من أديب إلى آدم، واحتفظت العربية بالأصل الشومري واستعملته فيما يؤدي معنى الإنسانية أو الآدمية من كرم الخلال وما يتصل به^(٣).

٣- ويقول بعضهم أنها أخذت من الأدب بمعنى الدعاء إلى الطعام، لأن الأدب يادب الناس ويدعوهم إلى المحامد أو من الأدب بمعنى العجب، لأن الأدب يعجب منه لحسنه، ويعجب منه صاحبه لفضله^(٤):
وهذا رأى يعوزه الدليل القاطع، فضلاً عن أن المعهود عند العرب استعمال الكلمة بنصها عند استعمالها في معنى آخر، فلماذا قُتِحت الدال؟ واللغة نقل وسماع!!

١- طه حسين في الأدب الجاهلي ١٩.

٢- الأدب الجاهلي ص ٢٠.

٣- أصول الأدب للزيات ص ٩ وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ١٢ ج ١.

٤- اللسان وشرح الكاتب للجواليقي ١٣، ١٤.

٤- ويرى الدكتور نلينو المستشرق الإيطالي أن بين الأدب والدأب اتفاقاً في المعنى الأصلي وهو السنة العادة، فظن أن العرب جمعوا دأباً على آداب بالقلب المكناني كما جمعوا يثراً على آبار، ثم اشتقوا من هذا الجمع على توالي الحقب مفرداً جديداً هو الأدب. لكن في رأى الأستاذ حلقة مفقودة، وهي أن جمع دأب على آداب لم يرد في أثر، ولم ير في معجم^(١).

٥- وقد احتال الأب أنستاس الكرملى في أن يجعل للكلمة أصلاً يونانياً، ولكنه انتهى برأيه إلى الظن والتخمين فإنه يرى أن الأدب صنعة الأديب الوارد في اللغة اليونانية باللفظ والمعنى فمن معاني الأديب عندهم الحسَن الغناء، اللذيد المحادثة والمنادمة والمجالسة المثير لهوى جلسائه بأنغامه الشجية، وحديثه الرقيق.

هذه آراء الباحثين في تاريخ كلمة (أدب). وهي كما ترى إنما تضرب في مجاهل الحدس والتخمين. وليس فيها دليل قاطع أو سند صحيح يدعوهم إلى الشك فيما حمل على الجاهليين من نصوص، وما نسب إلى الرسول من حديث.

ونحن مع من يتساءل: إذا كانت المسألة احتمال وظن، فما الذي يفتح احتمال صحة هذه النصوص الجاهلية؟ وهل يُدفع الاحتمال باحتمال؟ وينقض الظن بالظن؟ وإذا كانت ندرة هذه النصوص هي التي حملتهم

١- أصول الأدب للزيات ص ٨.

على الشك فيها، فلم لا نجوز أن تكون هذه الكلمة وردت في نصوص كثيرة أصابها ما أصاب الأدب الجاهلي من الضياع والتحريف؟ أما القرآن الكريم: فإنه لم يستوعب ألفاظ اللغة القرشية جميعاً، وأما الحديث فإنه ليس بذي الطول الذي يلتبس لفظه على الحافظين حتى يشك فيه. فوجود الكلمة فيه دليل على وجودها في الجاهلية لأن الرسول ﷺ لم يرتجلها ارتجالاً، وإنما استعملها استعمالاً بدليلاً فهم الإمام على لها دون سؤال أو مراجعة.

كيف نشك في هذه النصوص إذن وندفعها برأى محتمل غير قاطع، أو وجه مخترع غير ثابت؟ وإذا كان كل نص منها لا يفيد الرجحان أفلا يكون في مجموعها ما يفيد إن لم يقدر اليقين؟ على أن هذه النصوص ونحوها إذا سلم انتحالها تبين لنا على الأقل رأي المنتحلين في عرب الجاهلية، وكيف كانوا يتصورون حياتهم الاجتماعية والأدبية والسياسية، وهذه الصورة تشير إلى أن معنى كلمة أدب من الناحية التهذيبية كان معروفاً قبل الإسلام، ألا يدل هذا على أن كلمة الأدب عرفت في الجاهلية لأداء هذا المعنى؟

وأخيراً فإن وجود أخواتها المشتركة معها في المادة والقربيات معها في المعنى مثل بدأ وأبد، ودأب، يدل على أن كلمة أدب - ويندر أن ترد

هذه الكلمات بدونها لخفتها - دارت معها في الحياة العربية الجاهلية^(١).
تطور كلمة أدب

في القرن الأول الهجري:

كانت هذه الكلمة تدل في أول أمرها - كما رأينا - على رياضة النفس
وتمرينها على ما يستحسن من السيرة والخلق. وعلى اكتساب الأخلاق
الكريمة، واصطناع السيرة الحميدة، ولهذا يقول الجواليقي: في شرح
أدب الكاتب: والأدب الذي كانت تعرفه العرب هو ما يحسن من الأخلاق
وفعل المكارم، وكذلك كانت الجاهلية، فلما كان صدر الإسلام أضيف
إلى مدلولها تعليم المرء ما أثر من المحامد والمعارف، وصارت تدور
حول المعنى التعليمي - كما في حديث الرسول - إلى جانب دورانها حول
المعنى الخلقى والنفسى.



فلما كان العصر الأموي شاع استعمالها، وأخذت مشتقاتها تتعدد،
ومعانيها تتمايز، وأصبحت عنواناً جديداً على التعليم القُد والتربية
الممتازة، ونشأت مهنة جديدة لجماعة من الأساتذة الممتازين الذين
ينشئون الطبقة العليا وينهضون بتعليم أبناء الخلفاء والأمراء وكانوا
يسمون (المؤدبين)، وهؤلاء يدرسون لتلاميذهم الشعر وما يتصل به من
نسب وأيام وأخبار، ونحو ذلك من المعارف التي تكوّن الثقافة الأدبية،

١- أصول النقد الأدبي للشايب ص ٣، ٥.

وهي غير المعارف التي كانت قوام الثقافة الدينية للمسلمين في ذلك
الحين وهي القرآن والحديث وما يتصل بهما من تفسير وفقه وفتاوى
وعلى هذا دخل في مدلول كلمة أدب ما يليق به المعلم (المؤدب) إلى
تلميذه من كل ما يمنحه حفظاً من المعرفة والثقافة الأدبية^(١).



وإذن فقد صارت كلمة (أدب) في ذلك العهد تؤدي معنيين ممتازين:
أحدهما: ذلك المعنى الخلقى التهذيبي وهو أخذ النفس بالمرانة على
الفضائل وكريم الشيم، ثم التأثر بهذه المرانة لاكتساب الأخلاق الفاضلة
والسيرة الحميدة، ومن هذا تسمية عبدالله بن المقفع كتابه الأدب الصغير
والأدب الكبير، لاشتمالهما على قوانين وأصول من تمسك بها صار أديباً
أى فاضلاً مؤدباً مهذباً. ومنه قول زياد في خطبته البتراء: (وأما والله
لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيم لي قناتكم)^(٢)، وقول بعض
الفزاريين من شعراء الحماسة:

أَكْبِيهِ حِينَ أَنَادِيهِ لِأَكْرَمِهِ وَلَا أَلْقِيهِ، وَالسَّوَاءَ لِلْقَلْبِ
كَذَاكَ أَدَبْتُ حَتَّى صَارَ مِنْ خُلُقِي أَنِّي وَجَدْتُ مَلَكَ الشِّيمَةِ الْأَدَبِ

١- ويلاحظ أن لفظ (الأدباء) ظل يطلق على العلماء المومنين حتى أواخر القرن
الثالث الهجري حين استقلت العلوم، وضعفت الرواية، وغلبت العجمة ولهذا
قالوا: ختم تاريخ العلماء بالميرد وتعلب، وانفرد الشعراء والكتاب بمزية
اللقب (معجم الأدباء طبعة فريد رفاعي ١٣٢٢ ج ٥) ...
٢- البيان والبيان للجاحظ ٥٨ ج ٢.

وقول سالم بن وابصة:

إذا شئت أن تدعى كريماً مكرماً أديباً ظريفاً عاقلاً ماجداً حراً
إذا ما أنت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لرلته عذراً

والآخر: المعنى التعليمي القائم على رواية الشعر والنثر وما يتصل بهما من نسب وخير ومثل ونحو ذلك من المعارف غير الشرعية، التي كان يقوم بتدريسها المؤدبون المعلمون. ومن ذلك قول عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده: (أديبهم برواية شعر الأعشى)، وقول عمر بن عبدالعزيز لمؤدبه: (كيف كانت طاعتي لك وأنت تؤدبني؟) قال: (أحسن طاعة) قال: (فأطعني الآن كما كنت أطيعك)^(١).

وقد بقيت مادة الأدب تدل على هذين المعنيين منذ القرن الأول الهجري إلى الآن مع تعديل بسيط يتناولهما ضيقاً وسعة خلال القرون التالية، حتى أثر قولهم: الأدب أديان. أدب النفس وأدب الدرس^(٢).

في القرن الثاني:

ولما نشأت بعض العلوم العربية كاللغة والنحو والصرف في منتصف القرن الثاني، دخل ما وضع من هذه الأصول في مدلول الأدب، إلى أن ازدهرت الحضارة العباسية وصحبها النهضة العلمية وقويت حركة التأليف والترجمة، تلك الحركة التي انتهت فيما بعد باستقلال هذه العلوم

١- عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٩ ج ١.

٢- لسان العرب مادة أدب.

بأسماؤها، باستيفاء عناصرها وقواعدها، واتساع حركة التأليف فيها.

في القرن الثالث والرابع:

حتى إذا كان القرن الثالث رأينا مادة الأدب تؤدي المعاني الآتية:

أولاً: المعنى الخاص وهو الشعر والنثر وما يتصل بهما من أخبار وأنساب وأيام العرب وأحكام نقدية ثم النثر الفني الذي جوده الكتاب. وظهرت بهذا المعنى كتب معروفة كالبيان والتبيين للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٦هـ والكامل للمبرد ٢٨٥هـ وطبقات الشعراء لمحمد ابن سلام ٢٣١هـ وغيرها مما تجد فيه الأدب الخالص مع مسائل لغوية ونحوية وآراء في النقد الأدبي ومعارف قصصية.

ثانياً: المعنى العام الذي يتناول المعارف الإنسانية، وأنواع الفنون الجميلة والرياضة ونحو ذلك من كل ما يوسع الثقافة.

ثالثاً: أطلق الأدب على كل ما يكتسب الشخص ظرفاً وأناقاً. فأطلق الأدب على الغناء. قال ابن خلدون: وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن (الأدب) لما هو تابع للشعر، إذ الغناء إنما هو تلحينه^(١).

وكان من أثر تقلب العرب في أعطاف النعيم -بما أفاء الله عليهم من الفتوحات وظهر أثر ذلك في مدن العراق والجزيرة- أن أولعوا بالمنادمة والتأنيق. فأطلقوا الأدب على الأناقة في اللباس والطعام، واللباقة في الحديث والكلام، وحسن التناول والمنادمة وخدمة الملوك والأمراء،

١- عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٠١ ج ١.

والبراعة في الصيد أو اللعب، وكل مامن شأنه تكوين الرجل المستنير، وبهذا صار لفظ الأديب يرادف لفظ الظريف، أو المثقف أو المستنير. ولهذا يقول التبريزي في شرح الحماسة: وكان الأدب اسماً لما يفعله الإنسان فيتزَيَّن به في الناس (ويقول صاحب اللسان): الأدب الظرف وحسن تناول.

ويدلنا على أن الأدب كان يطلق على جميع ما ترجم من العلوم ونقل من الألعاب والفنون ما روى عن الحسن بن سهل الوزير العباسي (ت ٢٣٦) أنه قال: الأدب عشرة، فثلاثة شهر جانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عربية، وواحدة أربت عليهن. فأما العود والشطرنج ولعب الصوالج فشهر جانية، وأما الأنوشروانية^(١) فالطب والهندسة والفروسية، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس، وأما الواحدة فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس وجاء في إحدى رسائل الجاحظ قوله: * إنا وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة ذكروا أن أصول الأدب التي يتفرع منها العلم لذوى الألباب أربعة: فمنها النجوم وأبراجها وحسابها ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير ومنها الكيمياء والطب وما يتشعب من ذلك ومنها اللحن ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها * فأدخل الجاحظ في الأدب كما ترى جميع العلوم

١- شهرجانية نسبة إلى الشهارجة أو الشهارج وهم أشراف الفرس وأنوشروانية: نسبة إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس من ٥٣١ إلى ٥٧٩ م. (زهرة الآداب ج ١/ ١٤٢).

المسماة بالرياضية وبعض العلوم المسماة بالطبيعية في تقسيم العلوم المنسوب إلى أرسططاليس^(١).

ومما يدل على أن الأدب هو المهارة وأن الأديب هو اللبق الحسن التصرف ما أنشده أسود بن أبي كريمة:

ألا زعمت عفرأ بالشام أنتي غلام جوار لا غلام حروب^٢
وأني لأهذى بالأوانس كالدمي وأنتي بأطراف القنا للعب^٣
وأني على ما كان من عنجهيتي ولوثة أعرابيتي لأديب^(٢)

وقد بقي هذا المعنى العام وزاد اتساعاً في القرن الرابع كما سيأتي:

رابعاً: هذه العلوم الأدبية اللازمة لاستكمال ثقافة الأديب، والاستعانة بها على إنشاء الأدب وفهمه وتذوقه ونقده، كاللغة والنحو والنسب والاختبار والنقد وهي العلوم التي كانت عماد الثقافة العربية.

خامساً: أدب النفس. وقد اتسع هذا المعنى فتناول كل أسلوب مستحسن في علم أو عمل من خلق فاضل، وسيرة محمود، وقوانين يلزمها كل ذي حرفة أو منصب. ومن الكتب في هذا المعنى أدب القراءة لابن قتيبة، وباب الأدب في صحيح البخاري، وفي حماسة أبي تمام، وأدب النفس لأبي العباس السرخسي. ويستمر التأليف في هذا النوع من أدب السلوك على توالي القرون. كأدب النذيم لكشاجم المتوفى سنة

١- راجع في أصول الأدب للزيات ص ١٣١٠.
٢- الحياة العربية من الشعر الجاهلي د/ أحمد الحوفي ط بيروت ص ١٦.

٣٥٩هـ. وأدب الدنيا والدين للمارودي ٤٥٠هـ. وآداب الصوفية للنيسابوري ٤٤٥هـ. وآداب البحث والمناظرة (١) الخ.

فى القرن الرابع:

وفيه كانت العلوم اللغوية قد انفصلت عن الأدب ماعدا النقد حيث كان يحاول الاستقلال والانفصال، وكان كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكري مقدمة لنشاط هذا الفن ومحاولته الوجود الاستقلالى، وكتاب الموازنة للآمدى والوساطة للجرجاني، ونحو ذلك من الكتب والرسائل التى استطاع النقد بها أن يؤسس استقلاله.

فى القرن الخامس:

لم يكد ينتهى القرن الرابع ويحل الخامس، حتى تم للنقد الاستقلال على يد عبدالقاهر الجرجاني، وحيث نشأت علوم البلاغة. وبهذا أصبح الأدب يؤدى:

أولاً: المعنى الخاص، الذى وقف به عند الشعر والنثر، بعد انفصال النقد والبلاغة عنه.

ثانياً: المعنى العام، وقد بقى على سعتة يتناول جميع الآثار العقلية عدا الشرعية، فقد جاء فى الرسالة السابقة من رسائل إخوان الصفا، وهى من آثار القرن الرابع: (إعلم يا أخى بأن العلوم التى يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس منها الرياضية، ومنها الشرعية الوضعية، ومنها الفلسفية الحقيقية.

فالرياضية: هي علم الآداب. وهي تسعة أنواع: أولها علم الكتابة والقراءة، ومنها علم النحو واللغة، ومنها علم الحساب والمعاملات، ومنها علم الشعر والعروض، ومنها علم السحر والمزائم والكمياء ومايشكلها، ومنها علم الحرف والصنائع، ومنها علم البيع والشراء والتجارات، ومنها السير والأخبار....).

فى القرن السادس:

وفى القرن السادس ومابعده، وقف الأدب عند الشعر والنثر، وتحدد معناه الخاص بمايجرى عليه الاستعمال اليوم، وبمايقرب من معناه فى القرن الأول، فقد أريد به مآثور الشعر والنثر.

أما المعنى العام فقد ضاق مدلوله بعد إخوان الصفاء، ولم يعد الأدب يطلق على الفنون والصناعات وجميع العلوم غير الشرعية، بل أصبح قاصراً على علوم اللغة العربية، وإن لم يعين أحد هذه العلوم حتى أواخر القرن الخامس. فلما أنشئت المدرسة النظامية ببغداد، وجعل لدراسة الأدب فيها مكان جعلوا علوم العربية ثمانية: النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافى وصنعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم (ثم جاء الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ فعرف علوم الأدب بأنها: علوم يحتز بها عن الخلل فى كلام العرب لفظاً وكتابة، وجعلها إثني عشر علماً بإضافة المعانى والبيان والإملاء والإنشاء إلى ماتقدم من علوم المدرسة

النظامية (١) ثم تتابع العلماء والأدباء وهم يختلفون في حصرها حتى ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ ومازالوا يختلفون حتى عصرنا الحالي (٢).

وفي العصر الحديث:

نرى مدلول كلمة (أدب) يتسع ويضيق تبعاً لاختلاف الظروف والمصور وتبعاً لمعنيها الخاص والعام، يتسع فيشمل كل ألوان المعرفة. ويضيق فيقف عند الكلام الجيد من مآثور الشعر والنثر وما يتصل به وترى كلا هذين المعنيين يتسع حيناً ويضيق حيناً كذلك. وقد لوحظ مثل هذا في الأدب الأوربي، فإن لكلمة (لتيراتور) Litterature عند الفرنج معنيين: معنى عام ومعنى خاص، فالمعنى العام دلالتها على كل ما صنف في أي لغة من الأبحاث العلمية والفنون الأدبية فتشمل كل ما أنتجته خواطر العلماء وقرائح الكتاب والشعراء. أما المعنى الخاص فيراد به التعبير عن مكنون الضمائر ومشوب العواطف بأسلوب إنشائي أنيق مع الإلمام بالقواعد التي تعين على ذلك (٣).

ومن هنا نرى اختلاف الكتاب الغربيين في تعريف الأدب، فهذا (امرسن) الأمريكي يقول: الأدب سجل لخير الأفكار، وهو تعريف للأدب بالمعنى العام. ويقول (برك): (نريد بالأدب أفكار الأذكاء ومشاعرهم مكتوبة بأسلوب يُلْقَى القارىء) وهو على عنايته بجمال الأداء يسمح

١- في أصول الأدب للزيات ص ١١.

٢- أصول النقد الأدبي للشايب ص ١٢.

٣- الزيات ص ١٢.

للتنظريات العلمية أن تطرق باب الأدب. أما (سانت بييف) الناقد الفرنسي فالأدب عنده هو الأسلوب الجميل الذى يصور الحقائق الإنسانية (١) وهذا هو الأدب بالمعنى الخاص.

وإذن فلكلمة الأدب معنيان: المعنى العام وهو كل ما أنتجه العقل من أنواع المعرفة سواء أثار شعورك وأحدث فى نفسك لذة فنية أو لم يثر ولم يحدث

والمعنى الخاص وهو الكلام الجيد من الشعر أو النثر الذى يثير شعور القارئ أو السامع ويحدث فى نفسه لذة فنية، كاللذة التى يحسها عند سماع الغناء أو توقيح الموسيقى أو رؤية الجمال، هو التعبير الجميل عن معانى الحياة وصورها (فلا بد فيه من معان تثير العواطف، وصياغة جميلة تؤدى بها أفكاره ومعانيه).

وهذا الأدب بالمعنى الخاص هو الذى نعتى بدراسته والتوفر عليه، وهو الأدب الحق الذى يتصل بالنفس، ويلد المشاعر، ويخاطب العاطفة. أما النظريات العلمية فحقائق مجردة لا تستثير عاطفة ولا تلد شعوراً، لأنها تخاطب العقل وحده.



الفصل الثاني

الأدب بين التأثر والتأثير

تمهيد:

الأدب مرآة صافية يتأثر بما تتأثر به المجتمعات والبيئة من حوله فهو إذن مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية، وتسجيل لأحداثها وأحوالها ومشاعرها وخواطرها، يخضع لما تخضع له، ويتأثر بما تتأثر به لأنه التعبير الصادق عما تضطرب به النفس من مشاعر وخواطر وأخيلة، وهذه المشاعر والخواطر والأخيلة تتأثر بعوامل الطبيعة وأحوال العيش وأنواع العقائد وأطوار المجتمع وتقلبات السياسة ونحو ذلك، فالأدب صورة إقليمية، والأديب ابن بيئته وإذن فمن واجب مؤرخ الأدب أن يعرف هذه العوامل، فهي التي تعينه على فهم الأدب وتذوقه ورده إلى أصوله وتفسيره، كما أن من واجب دارس الأدب أن يضيف إلى الالمام بذلك المؤثرات التي لا يست حياة الأديب الشخصية، ووجهت مذهبه ولونت مزاجه وتفكيره. فإذا نظرنا إلى أهم العوامل المؤثرة في الأدب - على وجه العموم - وجدناها كالتالي (١):

أولاً: العامل السياسي:

لنظام السياسي أثره في خلق فنون من الأدب أو إزدهار بعض ألوانه، أو انحطاط بعضها. فالنظام الاستبدادي مثلاً: ينتج ألواناً من الأدب يظهر فيها التملق والنفاق والإسراف في تمجيد أصحاب السلطان، ومن ثم

١- راجع في هذا: محاضرات في أصول الأدب للأستاذ / الزيات، أصول النقد الأدبي للأستاذ / أحمد الشايب، التوجيه الأدبي د/ طه حسين.

يزدهر فن المدح، كما يظهر الأدب الرمزي الذي يضطر إليه بعض الأدباء في تصوير الظلم والفساد، فيهربون من الصراحة التي تؤدي بهم، إلى الرمز والإيهام، أو اصطناع الحيوان لأجراء ما يريدون على لسانه، على النحو الذي نراه في كتاب (كليلة ودمنة)، أو (جنة الحيوان) أو (المعذبون في الأرض) لطف حسين. وبعض الشعر الذي يتستر وراء موضوعات رمزية. وفي ظلال الحرية والنهضة السياسية: تزدهر الخطابة ولاسيما الخطابة السياسية. ذلك النوع الذي تخلقه الحرية السياسية والحياة الديمقراطية والأنظمة الدستورية. كما حدث في النهضة المصرية التي خرجت أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول. وكذلك يزدهر الشعر الحماسي والوطني ونحوهما من الشعر السياسي الذي تصطنعه الأحزاب السياسية كما كنا نرى وكما رأينا في صدر الدولة الإسلامية. أما في ظلال الاستبداد يخفت صوت الخطابة، ويذهب الأدب الصريح الصادق الذي يمثل الحرية الفردية والاجتماعية.

وتعمل السياسة عملها في رواج بعض الفنون وانتشارها. ففي خلافة معاوية انتشر الهجاء المقذع في العراق لأنه ساس الرعية بالتفريق وإحياء العصبية ليشغل الناس عن الخصومة في خلافته بالخصومة في أمر جرير والفرزدق مثلاً. وانتشر الغزل في الحجاز لأنه اعتقل شباب الهاشميين في مدنه وسلط عليهم الترف وشغلهم بالمال والفراغ.

وقد يكون ضعف السياسة قوة للأدب كما حدث من ازدهار الأدب في

عهد ملوك الطوائف بالأندلس وبعد انصداع شمل الخلافة بعد عهد المتوكل واستقلال الولاة في فارس ومصر والشام والمغرب بسبب المنافسة بين هؤلاء الولاة. كما قد أشرنا الى ذلك عند الحديث عن المصور الأدبية.

ثانياً: الاستعداد الفطري:

فليس كل إنسان يتأثر بما يحيط به فيصور تأثره في الشعر أو النثر، وإنما يستطيع ذلك من رزق صفاء الطبع، ورقة الشعور، ودقة الإحساس، وموهبة الفن الأدبي، وبعض الناس يتاح له من ذلك حفظ يسير، وبعضهم يتاح له أوفر الحفظ، ومنهم من جبل على تيلد الشعور، ونكد الخاطر، واستفلاق الطبع، فلا يتأثر بما حوله حتى يصور تأثره في شعر أو نثر. وعلى هذا النحو نرى الأمم تختلف في استعدادها الفطري، وتتباين في نصيبها من هذا الحظ. وقد أتيح للأمة العربية أن تكون أقوى الأمم شاعرية، وأشعر الأمم السامية وذلك لقراغ العرب، وشدة حسهم، وتوقد قرائحهم، وصفاء سمائهم، وسكون صحرائهم وحريرتهم واستقلالهم وحنينهم وهيامهم، لكثرة حلهم وترحالهم. وكذلك كان حظ الأمة اليونانية كبيراً من هذا الاستعداد الفطري وتلك الموهبة الغريزية، فكانت أمة شاعرة. أما الأمة الرومانية فلم يتح لها غير حفظ يسير لم يكن شيئاً، بجانب ما أتيح لها من مواهب أخرى هيأت لها النبوغ في الحرب والسياسة والتشريع.

ثالثاً: البيئة والإقليم:

تختلف طبائع الناس وأمزجتهم وأحوالهم باختلاف طبائع الأقاليم وأجوائها، فيختلف تأثيرها في نفوس الناس وأحوالهم ونظام اجتماعهم، لأن طبيعة الإقليم هي التي تنهج لساكنه سنن المعيشة، ونظام الاجتماع، وتكون أخلاقه وطباعه، ومناظره هي التي تربي ذوق أبنائه، وتغذي خيال كتابه وشعرائه، ولقد يكون الإقليم صحراويًا، وقد يكون جبليًا، وقد يكون سهلاً، وقد يقرب من البحر أو تشقه الأنهار، وكل عامل من هذه العوامل يؤثر تأثيره الخاص في الحياة المادية والمعنوية لمن يعيشون في ظلاله ... فالشعر الجاهلي قد تأثر أشد التأثر بطبيعة البادية وحياة البدو، فألفاظه خشنة كجبالها، ومعانيه وحشية كأولدها، وأساليبه متشابهة كصخورها، وأخيلته مجذبة كقفورها. وهو صورة صادقة لهذه الطبيعة، يتمثل فيه وصف الصحراء والسراب والأباعر والغزلان والكتبان والأطلال والجبال أكثر من أي شيء آخر. نقرأ لامرئ القيس مثلاً:

تري بحر الأرام في عرصاتِها

وقيعانها كأنه حبّ قلقل^(١)

١- الأرام: الطياء البيض واحدتها رثم. عرصاتُها: ساحاتها.

كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحْتَلُّوا
لَدَى سَمَرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفٌ حَنْظَلٌ^(١)

وقوله:

وَلَيْلِ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرغَى سَدُولَهُ
عَلَى بَأْنَوَاعِ الْهَمُومِ لِيَبْتَلِي
فَقُلْتُ لَهُ لَنَا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ
وَأَرْدَفَ أَعْجَاراً وَنَاءَ بِكُلِّكَلٍ

ويقول:

فَعَنْ لَنَا سِرْبٌ كَانَ نِعَاجَهُ
عِذَارِي دَوَارٍ فِي مَلَاءٍ مَذْيَلٍ^(٢)

ونقرأ للنايغة:

وَمَهْمَهُ نَازِحٍ تَعَوَى الذَّنَابُ بِهِ
نَاشِي الْمِيَاهِ عَنِ الْوَرَادِ مَقْفَارٍ^(٣)
جَاوَزَتْهُ بَعْلُنْدَاةٌ مَنَا قَلَّةً
وَعَرَّ الطَّرِيقَ عَلَى الْأَحْزَانِ مَضْمَارٍ^(٤)

- ١- السَّمَرَاتُ: جمع سمرة: الشجرة. تَقَفَ الحَنْظَلُ استخراج حبه أو شقه.
- ٢- عَنْ: عرض. السَّرْبُ: القطيع. دَوَارٍ: حجر كان أهل الجاهلية ينصبونه ويطوفون حوله تشبيهاً بالطائفتين حول الكعبة إذا نأوا عن الكعبة. الْمَلَاءُ: جمع ملاءة والمذيل: الذي أطيل ذيله وأرغى.
- ٣- المَهْمَةُ: الوادي الموحش.
- ٤- بَعْلُنْدَاةٌ: شديدة وصف للناقة. سَرِيعَةٌ: نقل القوائم. الْأَحْزَانِ: المشى في الجزن.

كأنما الرجل منها فوق ذى جدد
ذُبَّ الرياد إلى الأشباح نظار^(١)
ونقرأ للبيد في تشبيه ناقته بالبقرة الوحشية:
أفتلك أم وحشية مسبوعة
خذلت وهادية الصوار قوامها^(٢)
خنساء ضيعت الفرير فلم يرم
عرض الشقائق طوفها وبغامها^(٣)
عَلَّهَتْ x فِي نِهَا صَعَائِدُ
سِعَا تَوَامَا كَامَلَا أَيَامَهَا^(٤)
فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحي
واجتاب أردية السراب أكامها^(٥)



- ١- ذو الجدد: ثور الوحش فيه خطوط بيض وحمراء الذب: الدفع. والرياد: الأرياد أى أنه قلق لا يستقر.
- ٢- مسبوعة: أكل السبع ولدعا. خذلت: تأخرت عن البقر والصوار جماعة البقر وهاديتها متقدمتها التى تهديها أى أن ملاكها هادية الصوار.
- ٣- خنساء: قصيرة الأنف. الفرير: ولد البقرة.
- ٤- علَّهَتْ: تحيرت. تيلد: تتردد وتتحير. الصعائد الأمكنة المرتفعة ونهاؤها: نهايتها.
- ٥- اللوامع: الأل. اجتاب: لبس.

فلما اثبت العرب في الأقاليم المتحضرة تأثرت آدابهم بها، وكان شعرهم فيها غير شعرهم في الجزيرة، بل كان شعرهم في كل إقليم يختلف عنه في الإقليم الآخر وهكذا ظل عامل الطبيعة يفعل فعله، حتى رأيناه يخالف بين الشعر في عواصم الشرق وبينه في الأندلس، فقد وجد شعراء العرب في الأندلس الطبيعة المنبرجة الشاعرة من مروج مطرزة بالزهر، وجبال مؤزرة بالنبت، وأنهار تلتف كالأساور على معاصم الهضاب، وخمائل تمتد كالأهداب على العيون العذاب. هذا إلى الأمطار المتصلة، والمناظر المختلفة. فذبجوا الشعر تدبيج زهرها، وسلسلوه سلسلة أنهارها، ونوعوا فيه، وجددوا في أوزانه وقوافيه، حتى أصبحنا نقرأ مثل هذا الشعر الرقيق في وصف هذا المنظر لابن خفاجة:

لله نهرٌ سأل في بطحاءٍ أشهى وروداً من لعمى الحسناء
متعطفٌ مثل السوار كأنه والزهر يكتفه مجر سماء
وغدت تحف به الغصون كأنها هذبٌ تحف بمقلة زرقاء

ويظهر أثر هذا العامل (أى أثر الطبيعة) بين بلد وآخر حين نرى هذا العامل وهو يخالف بين الأدب في مصر مثلاً وبينه في الشام والعراق، فالطبيعة المصرية مسالمة لا تزعجها الزلازل إلا مائدر ولا تهزها العواصف، ولا يهيجها البرد القارس، ولا يلذعها الحر اللافتح. فجوها لا يكاد يختلف ومناظرها لا تكاد تتغير، ولهذا طبع أهلها على المحافظة والوداعة والفكاهة والاعتدال وجاء الشعر المصرى - في عمومته - واضح

اللفظ جيد السبك، بطلية التجدد هادىء الأسلوب، يتناول الأمور فى اعتدال ورفق ولين. بينما نرى الشعر الشامى: شديد الحركة، كثير التنوع، سريع التجدد، قلق الأساليب، بسبب نشاط الحياة، وتعدد المناظر، واختلاف الصور، وتقلب الطبيعة. كما نرى الشعر العراقى: قوياً ثائراً ساخطاً متوثباً متوقد الشعور، من إسراف الطبيعة فى الحر والبرد، وغلبة الحياة البدوية أو غير ذلك من العوامل الطبيعية. وقد أخذ عامل الطبيعة يضعف بسهولة المواصلات وانتشار المدنية، حتى أصبحنا نرى التقارب بين شعراء هذه الأقطار فى المذاهب الأدبية، والصناعة الفنية والروح والخيال، وسيزداد هذا العامل ضعفاً فى المستقبل، ولكنه سيحتفظ بتأثيره على كل حال.

رابعاً: خصائص الجنس:

لكل جنس ميوله الغريزية والطبيعية فالجنس الأرى يميل إلى الاستقصاء والتفصيل والتحليل والتعمق، بينما الجنس السامى إلى التعميم والإجمال والبساطة، لذلك قلبه، وحدة خاطره. وهكذا يتميز كل جنس بخصائصه وسماته، وهى خصائص تؤثر فى الإنتاج الأدبى وتبدو فيه بصورة واضحة. فـ شعر العرب يختلف عن شعر اليونان والأوروبيين فى المذهب والخيال والغرض، وشعر ابن الرومى مثلاً يختلف عن شعر ابن المعتز مع أنهما نشأ فى بلد واحد وعصر واحد. فابن الرومى يحلل ويتعمق ويستقصى كقولـه فى وصف الأحـدب:

قَصُرَتْ أَخَادِعُهُ وَطَالَ قَدَالُهُ . فَكَأَنَّهُ مُتَوَقِّعٌ أَنْ يُصَفَّعَا
وَكَأَنَّمَا صُفِّعَتْ قَفَاهُ لِمَرَّةٍ وَأَحْسُ ثَانِيَةً لَهَا فَتَجَمَّعَا
وقوله:

لَمَّا تَوَذَّنَ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بَكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ
وَالْإِلَّا فَمَا يَبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنَّهَا لِأَرْمَعُ مَمَا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ
بَيْنَمَا يَحْمَمُ ابْنُ الْمُعْتَزِ وَيَجْمَلُ وَيَتَبَسَّطُ لِأَنَّهُ عَرَبِيٌّ أَصِيلٌ وَأَنْتَ لَتَحْسُ
أَثَرَ هَذَا الْعَامِلِ حِينَ تَقْرَأُ لِلنَّابِغَةِ الشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ قَوْلَهُ:
وَلَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَيْءٍ، أَثَى الرِّجَالِ الْمَهْدَبُ؟



ثم ترى هذا المعنى عند بشار بن برد، وكيف حلل فيه واستقصى وكرر
وزاد في التصوير، حتى صور في أبيات ما كان يصوره النابغة في بعض
بيت، قال بشار:

إِذَا كُنْتُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ الَّذِي لَا تَعَاتِبُهُ
فَعَشَّ وَاحِدًا أَوْصَلَ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُقَارَفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ
إِذْ أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مَرَارًا عَلَى الْقُدَى ظَمِئْتَ وَأَثَى النَّاسِ تَصَفَّوْا مُشَارِبُهُ؟
وَمَنْ ذَا الَّذِي تَرْضَى سَجَايَاهُ كُلَّهَا كَفَى الْمَرْءَ نَبَلًا أَنْ تُعَدَّ مُعَايِبُهُ
خامساً: الحضارة والمدنية:

فالحضارة والرخاء مما يؤثر في الذوق، ويزيد في الصور والخطاظر،
وينوع في معاني الأدب وأغراضه. فالمعاني التي تخطر للمتحضرين غير

المعانى التى تخطر لأهل البادية، والأغراض التى يقول فيها أهل الحضر غير أغراض البدويين: والألفاظ الحضرية ثلاثم الحياة المتحضرة رقة وعدوية ووضوحاً وحسن استقصاء؛ ولهذا نجد الفروق واضحة بين شعر العرب قبل أن يتحضروا، وبعد أن تحضروا فى مصر والشام والعراق والأندلس وكذلك ترى الفرق عظيماً بين شعرهم إبان ازدهار حضارتهم وشعرهم بعد انحطاط الحضارة الإسلامية حين تغلب الترك والتتار. ومن هنا عاد إلى الأدب العربى رونقه ورقية بوجه عام حين أخذت الحضارة تزدهر منذ كانت النهضة الحديثة.

ولعل من أهم مظاهر تأثير الحضارة والحياة الاجتماعية فى الأدب أن مدن الحجاز حينما زخرت بالمال، ونعمت بالقراع. منذ خلافة عثمان ابن عفان -رضى الله عنه- إلى أواخر القرن الأول للهجرة، غرق أهلها فى اللهو، وعكفوا على الغناء، وشرقوا بالنعيم واستسلموا للصبابة، وانقطع شعراؤها إلى الغزل فافتنوا فيه، وتصرفوا فى معانيه: كعمر وجميل وكثير. كما كان من الشواهد أيضاً: ظهور الشعر العامى فى بغداد والأندلس فى عصر واحد، ففى بغداد ظهر (الموالي) على لسان صنائع البرامكة، وشعر (القوما) الذى ينادى به العامة فى طوافهم بالليل فى شهر رمضان. وفى الأندلس ظهر الموشح والزجل، ونبغ فيهما النوايغ. ولكن البغداديين استهجنوا أدب العامة وعزفوا عنه، بينما استحسنته الأندلسيون ونبغوا فيه! والسبب فى ذلك أن بغداد كانت ارسقراطية، لأنها موطن

الأشراف وذوى الأحساب والثراء، فكانوا يترفعون عن الشعب وأدبه، ويأنفون من مجارة الطبقة العامة أو البرجوازية فى أدبها. أما الأندلس: فكانت ديمقراطية غنية، لم يعتز أحد فيها بالنسب لتساويهم فيه ولا بالثروة لعموم الرخاء وحسن توزيع الثروة، لذلك لم يترفع الشعراء والأدباء فيها عن تقليد الأدب العامى وتدوينه.

سادساً: التاريخ:

وللتاريخ تأثير كبير فى الأدب، فهو مادة لايد منها لثقافة الأديب يستمد منها فيما يكتب، ويستعين بها فيما فكر. وكثيراً ماكانت أحداثه مادة الأدب وخاصة فى المصور الحديثة، حيث أصبحت موضوعاً مهماً للقصص التاريخية: كما فعل (شكسبير) فى بعض قصصه فى الأدب الإنجليزى، وكما فعل جورجى زيدان وأحمد شوقى وغيرهما فى الأدب العربى، ومن ناحية أخرى نرى بعض الكتابات التاريخية نفسها قطعة أدبية فى تاريخ الطبرى. بل إن بعض الكتب التاريخية كتب أدبية بأكملها. وهكذا يكون التاريخ من أهم العناصر التى تنشئ النشر الفنى وقد قالوا إن كتاب (هيرودوت) هو أقدم كتاب منشور رائع عرفه الأدب اليونانى.

سابعاً: العلم:

وهو لون من ألوان الحضارة له أثره وخطره فى ترقية العقل، وتقوية الشعور، وتنمية التصور، وخلق أنواع طريفة من الأدب. فإذا صرفنا النظر

عن منظومة ابن عديريه في التاريخ وألفية ابن مالك في النحو، فإننا نلاحظ أن انتشار العلوم قد أحدث نوعاً من القصص الخيالية تمتزج فيها حقائق العلم بروعة الخيال وغرابة الحوادث، تحقيقاً لرأى، أو تشويقاً لعلم. كما صنع ابن الطفيل الأندلسي في رسالة (حي بن يقظان)، فقد شرح في هذه القصة كيف يستطيع الإنسان بعقله وحده أن يتدرج من المحسوسات البسيطة إلى أسمى النظريات العلمية، ولكنه يعجز عن إدراك أرقى الحقائق بغير وحى من الله أو هداية نبي.

وللعلوم فضل ظاهر على اللغة في المادة والأسلوب، وأثر قوى في ترقية النشر خاصة لأنها تكسبه القوة والدقة والوضوح. ولم يرتق النشر في أمة إلا بعد رقيها في الحضارة والعلم، لأن النشر لغة العقل كما أن الشعر لغة الخيال. فالنشر العربي لم يرق إلا في ظلال الحضارة.

هذا وقد يختلف تأثير انتشار التعليم في الأدب باختلاف ما يكون له من مدى، فانتشار العلم في العصور القديمة كان نسبياً مقصوراً على طائفة خاصة حيث كان الأدب ارسنقراطياً أو قريباً من الأرسنقراطية، أما في العصور الحديثة حين أتيح العلم للناس فقد أصبح العلم ديمقراطياً شعبياً، وأخذ الأدباء يفكرون حين ينشئون في طبقات من الناس لم يكن يفكر فيها أسلافهم.

ثامناً: الدين:

وللدين وما يتصل به من أخلاق ومعتقدات تأثير كبير في الأدب. فإنه مادة لموضوعات متعددة وهو الذي يؤثر في الأخلاق والعواطف تأثيراً يتردد صده في مناحي الأدب. ولا بدع فالدين قوام الحياة النفسية للشعوب. ومن ثم كان أثره واضحاً في كل ما يصدر عنها من آثار مادية ومعنوية فالآثار المادية الفنية كالمعابد والمساجد والكنائس والتماثيل: أما المعنوية فمنها هذه الأناشيد الدينية التي هي مبدأ الشعر في كل أمة كأناشيد (رع) عند المصريين وأناشيد (أرفيه) عند اليونانيين. ومنها هذا السجع الذي كان يجري على ألسنة الكهان في الجاهلية، وربما كان مبدأ الشعر العربي، وكثير من الديانات قد صاحبها كتاب مقدس يعدّ مثلاً أدبياً ممتازاً للقرآن الكريم وما سبقه من كتب مقدسة أثر كبير في أدبنا العربي كما أوجد الدين الإسلامي الأدب الصوفي وشعر الزهد، ونهض بالخطابة الدينية التي تلقى في محافل الصلاة العامة ومقامات الوعظ، ونحو ذلك. مما يدلنا على أن تأثير الدين في الحياة الفنية قوى وعميق. وهو فوق ذلك يهذب النفس، ويرقق الشعور، ويسمو بالإنسان إلى مستوى رفيع.

تاسعاً: اتصال الشعوب:

وقد تكون الصلة بين الشعوب حربية فتصل بين الغالب والمغلوب ويتفتح كل بما عند الآخر، فقد تأثر الرومان بحضارة اليونان وآدابهم لهذا السبب، كما أفاد العرب من الفرس والروم وسائر البلاد التي فتحوها

وكان من أثر اتصال الشرق بالغرب أثناء الحروب الصليبية أن تأثر
الغربيون بالقصص الشعبية الخرافية في الشرق حيث نشأ في فرنسا
ما يعرف باسم (الغابليو) أى القصة الخرافية القصيرة. على أن الحروب
بين الشعوب تنمى فنوناً حماسية وربما أوجدت الشعر القصصى:
فالإلياذة الإغريقية تدور على حروب اليونان لأهل طروادة، والشاهنامة
الفارسية تدور على تاويخ الأكاسرة ووصف الحرب بين أهل إيران وأهل
طوران. وهكذا كان الشعر القصصى أو الملاحم صدى لاتصال الشعوب
على أن عامل الحروب قد أثر في النثر العربي والشعر العامى، فإن نشوب
الحروب الصليبية قد اقتضى تدوين بعض القصص الحماسية كقصة عنتره
وسيرة بنى هلال ونحو ذلك. كما أثر في الشعر الفصحى الذى يصور أيام
العرب ووقائعها فى الجاهلية.

أما الاتصال السلمى بين الشعوب: فيتيح لها أن تتبادل الثمار العقلية
والفنية وغيرها، وتتواصل بالجوار والمصاهرة، وهكذا يأخذ بعضها من
بعض، ويقلد بعضها بعضاً. فتنشأ فى الأدب فنون لم تكن معروفة.
وتتطور الفنون التى كانت. وقد تضعف فنون كانت قوية الإتصال. فهذه
دولة العباسيين فى بغداد ودولة الأمويين فى قرطبة كانت حضارة كل
منهما نتيجة اختلاط شعوب مختلفة، لكل شعب منها خصائصه، فالتقت
العقلية السامية بالعقلية الآرية. وكان لهذا اللقاح أثر فى الفكر يعلل لنا
وفرة المعانى الجديدة فى شعر بشار وأبى نواس وابن الرومى وغيرهم.
وأثر فى الاتجاه يظهر فى الأغراض الجديدة كالغزل بالمذكر مثلاً الذى

ولقد هذا الاختلاط.

وقد اتصلت مصر والشرق العربي بأوروبا منذ القرن الماضي فتطورت الحياة الأدبية فيهما تطوراً ملموساً. وتأثر الأدب المصري بالأدب الأوربي في أساليبه ومذاهبه.

عاشراً: الاحتذاء والمحاكاة:

ويتبع اتصال الشعوب والأفراد تقليد واحتذاء فهو أمر فطري في الإنسان لا يستطيع بدونه أن يتكلم أو يتعلم، ولولا الاحتذاء لما كانت فنون الآداب، فالشعر والنثر إنمائيصاغان على قواعد وأساليب خاصة، وامرعاتهما إلا اقتداء الأديب بمن سبقه وترسم خطاه.

وللتقليد في الآداب أثر ظاهر، فالشعر اللاتيني عاش زمناً على تقليد الشعر اليوناني، كما قلد الأوربيون في الشعر التمثيلي وغيره من الملاحم وظهر أثر التقليد في الأدب العربي الحديث، فظهر الشعر التمثيلي على يد شوقي وغيره من الشعراء، وظهرت الأقصوصة والقصة والرواية، وغير ذلك ماأضاف إلى فصوله الأدبية فصولاً خالدة.

والأدب الفارسي والأدب التركي قد تأثرا بالأدب العربي فقرض الفرس شعرهم بالأوزان العربية، أما الأتراك العثمانيون فإنهم حين أخذوا يدونون أشعارهم في القرن الثامن اقتبسوا من الفرس بعض الأوزان العربية مدداً لأوزانهم القديمة.

الحادي عشر: الغناء:

هو أيضاً يتبع الأدب وينشره بين جميع الطبقات فيرتفع بأذواق العامة

وأفكارهم وأساليبهم، وقد عنى أبو الفرج الأصمعي بهذا الأمر فجمع أشعاراً كثيرة تغنى بها المغنيون والمغنيات في مجالس الخلفاء وغيرهم وكان الغناء سبباً في اختيار أو حرص الخليفة على الجارية، كما كان سبباً في تهذيب ألفاظ الشعر وترقيق حاشيته واختيار بعض الأوزان دون غيرها، وفي عصرنا الحاضر نسمع أشعاراً لشوقي وحافظ إبراهيم وأبي فراس الحمداني يتغنى بها الرجال والنساء.

ولو حرص العامة على مثل هذه الأشعار في أغانيهم بدلاً من الأسفاف والبسائط واللغو والهازل من الكلام أقول لو حرص الناس على هذا لكان للفتنة العربية شأن آخر.

وهناك عوامل كثيرة تؤثر في الأدب بعضها خاص وبعضها عام، وإن كان ينبغي أن نذكر منها أيام العرب وأسواقها، وسنتحدث عنها في فصل خاص. وكذلك النقد الذي يرشد الأدباء إلى المناهج الصالحة، هو توجيه للأدب.

ويجب ألا ننسى مجالس الأدب التي كان يفقدها أمثال عبد الملك ابن مروان ومالها من أثر كبير في النهوض به، والمناقشة في روايته، كما لا ننسى أثر تشجيع الأدباء وإجازتهم مما يدعو إلى الإبداع والإبداع، وغير ذلك مما يؤثر في الأدب دون شك كما فعل رسول الله ﷺ مع حسان بن ثابت وكعب بن زهير وكما فعل بعض الخلفاء مع الشعراء.



الفصل الثالث

أنواع الأدب وخصائصه



ينقسم الأدب أقساماً عدة منها: الذاتي، والموضوعي، والإنشائي، والوصفي:

أولاً: الأدب الذاتي:

الأدب الذاتي: هو الذي يعبر فيه الأديب عن خواطره ومشاعره وآرائه وأحاسيسه وتأملاته، فالشعر الغنائي -وهو قسم التمثيلي والقصصي- من الأدب الذاتي لأن الشاعر يتغنى فيه بمواقفه الذاتية وحواله النفسية وآماله وآلامه، ومن هذا المنطلق أطلق النقاد على الشعر العربي القديم بأنه كله شعر غنائي، ونعود فنقول ليس معنى الأدب الذاتي أنه مجرد من الصيغة الموضوعية، بل معناه أن الصيغة الذاتية هي الراجحة فيه.

ثانياً: الأدب الموضوعي:

والموضوعي من الأدب: هو مالا يعبر به الأديب عن عاطفته أو ميوله الخاصة ولا ينطق بلسان نفسه، وإنما يعبر به عما يجول بخواطر غيره فالأدب التمثيلي والقصصي من الأدب الموضوعي، لأن الشاعر أو الكاتب إنما يعبر فيهما عما يجول بخواطر الأشخاص الذين يتحدث عنهم، ويعبر عن آرائهم وينطق بلسانهم، فهو كالمؤرخ يسرد الحوادث التاريخية في أسلوب بليغ دون أن يصبغ عباراته بتزعاته وميوله وآرائه الخاصة. وليس معنى هذا أنه مجرد من الصيغة الذاتية، إذ لابد من انفعال الأديب بموضوعه، ومعاناته للتجربة، غير أن الصيغة الموضوعية هي الغالبة فيه.

ثالثاً: الأدب الإنشائي:

وهو ما تعبر به من شعر أو نثر عما تحس به من الخواج والعواطف والخواطر نحو الطبيعة، سواء أكانت هذه الطبيعة داخلية تحسها في نفسك وتجدها في قلبك؟ متمثلة في عواطفك وميولك وأهوائك، أم خارجية تراها في الجبال والبحار والسماء والنجوم والرياح والأحداث المختلفة. فإذا هزك منظر من مناظر الطبيعة، أو راقك مشهد من مشاهدنا، أو اختلجت نفسك بعاطفة من عواطف الحب أو البغض أو الرثاء أو الإزدراء. وصورت ما أحسسته وشاهدته تصويراً ملائماً للموضوع، فإن هذا التصوير الذي يتمثل في شعرك أو نثرك يسمى أدباً إنشائياً لأنك أنشأته بعد أن لم يكن، وارتجلته مقلداً به الطبيعة تلك التي تظهر ابتسامها وغضبها مثلاً في عصف الريح وقصف الرعد واضطراب البحر، ويتجلى ابتسامها ورضائها في ضوء الشمس وعرف الزهرة وتفريد الطائر، وأنت في هذا أيضاً قد صورت شخصيتك وعبرت في ذلك عن مشاعرك، ونضرب على ذلك مثلاً من قصيدة المساء لخليل مطران وفيها يقول(١):

١- ديوانه ج ١ ١٤٤ - ١٤٦ ط ٣ بيروت.

إنى أقمتُ على التعلُّك^(١) بالمنى فى غربة قالوا: تكون دوائى
متفرِّدٌ بصيايتى، متفرِّدٌ بكآيتى، متفرِّدٌ بعنائى^(٢)
شاك إلى البحر اضطراب خواطرى فيجيبنى بريحه الهوجاء
ثاو على صحر أصم وليت لى قلباً كهذى الصخرة الصماء
ينتابها موج كموج مكارهى ويفتها كالسقم فى أعضائى
والبحر خفاق الجوانب ضائق كمدأ كصدى ساعة الإساء
تغشى البرية كدرة وكأنها صعدت إلى عيني من أحشائى
وخواطرى تبدو تجاه نواظرى كلمى كدامية السحاب إزائى
والدمع من جفنى يسيل مُشعشعاً بسنا الشعاع الغارب المُترائى
فكان آخر دمة للكون قد مزجت بآخر أدمعى لراثى
وكاننى أنستُ يومى زائلاً فرأيت فى المرأة كيف مسائى
وبعد: فمع هذا الخيال الإنشائى الحزين ندرك أن موضوع الأدب
الإنشائى هو: الطبيعة داخلية أو خارجية.

رابعاً: الأدب الوصفى:

أما الأدب الوصفى فهو الذى يتناول القصيدة أو الرسالة من الأدب
الإنشائى بالوصف والنقد والتقريض، فيثنى عليها ويطربها إن رضى عنها،
وينقدها ويغيبها إن سخط عليها. فهذا النقد أو التقريض لا يصور الطبيعة

١- أى قبل له: لعلك تكون سعيداً فى غربتك.

٢- فى هذا البيت وفى بقية الأبيات تبدو سمات الرومانسية من التفنى بالألم
والاتحاد مع الطبيعة واشتراكية الشكوى... الخ.

تصويراً مباشراً، ولا يصور تأثير صاحبه بها، وإنما يصف الكلام الذى قيل فى تصوير الطبيعة: فموضوعه إذن هو الكلام لا الطبيعة: القصيدة التى تصور البحر لا البحر نفسه.

فالآدب الوصفى إذن هو الذى نسميه نقداً، ولاشك أنه وجد بعد الآدب الإنشائى، وتستطيع أن تدخل فيه تاريخ الآدب، إذ كان مما يعالجه هذا التاريخ الموازنة والخصائص الفنية ونحوها.

وبهذا تستطيع أن تقسم الآدب الوصفى إلى قسمين: أحدهما النقد الذى يبين ما يمتاز به الآدب الإنشائى من خصائص سواء أكانت محاسن أو عيوب والآخر: تاريخ الآدب، وقد عرضنا لوظيفته فى بيان أحوال الآدب وأطواره.

خامساً: عناصر الآدب ومقوماته:

لعل من أهم مقومات الآدب: الفكرة، والعاطفة، والخيال، والأسلوب.

١- الفكرة: تمثل الفكرة عنصراً هاماً من عناصر الآدب إذ أنها لب التجربة التى يعتمد عليها الأديب وهى عماد مشاعره ودليل عاطفته وجوهر موضوعه الذى هو بصده. وإلا فكيف نأسى ونحزن إذا لم تكن هناك حقيقة مرة هى فكرة الموت وسلطانه، وعظيمة البلى وآثاره، وعناء الحياة ومهزلتها فى مراثية أبى العلاء؟ وكيف نتلظى حسرة وأسفاً إذا لم نستشعر الحقيقة فى أن الأيام تعبت بنا وتفقدنا حياتنا فلا نستردها ولا نعود إليها فى قوله:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحقّ لسكان البسيطة أن ييكونوا
تُحطّمنا الأيام حتّى كأننا زجاجٌ ولكن لا يُعاد له سبيلٌ
وهكذا لا يخلو أدب من الحقائق وإلا كان عبثاً أو سخفاً لا يليق
بصاحبه أن يعدّ من الأدباء!

٢- العاطفة: والمراد بها: التجربة الشعرية أو المعاناة التي تشيع بها
نفس الأديب في موضوع أو مشاهدة وتؤثر فيها تأثيراً قوياً يدفعه إلى
الإعراب عما يحس به ... وهي من أهم عناصر النص الأدبي التي تميزه
عن النصوص العلمية وغيرها من الأخبار العادية أو الصحفية، بما تنم
عن شخصية الأديب، وتصور من ذوقه ومزاجه وفكره وروحه،
وبما تكسبه الأدب من صفة الخلود.

فالنص الأدبي يمتاز بتردد الناس على قراءته وحرص القارىء على
الرجوع إليه ليغذى فكره وشعوره، تقرأ مثلاً مرثية أبي العلاء:
غير مجيد في ملتي واعتقادي نوح بك ولا ترثم شاد
فتثير في نفسك عاطفة الأسى والحزن، وتنقل إليك احساس الشاعر
وتأثره الذي تشيعت به نفسه ومزاجه وروحه وتفكيره ونحو ذلك من
عناصر شخصيته، ثم تترك القصيدة إلى أن تدعوك الدواعي لإثارة هذه
العاطفة في نفسك بوفاء صديق مثلاً فتعود إلى مبعثها عند أبي العلاء
المعري فتقرأ قصيدته لتظفر مرة ثانية بهذه اللذة النفسية وهكذا
دواليك:

وأما النظريات والمسائل العلمية فإنها -على ماتحتوى- حقائق خالدة- قابلة للنسخ في صور وأساليب أخرى، أو الإعراض عنها ونسيانها؟ كما أن الشخصية معدومة فيها وإن ظهرت فليست في تدوين الشخصية الأدبية ووضوحها.

وقد اشترط نقاد الأدب المثالي في العاطفة الصدق، فالغزل المصطنع في شعر البحترى وأبي تمام والمنتبى مثلاً حسن الرصف والرصف، ولكنه أقل من غزل جميل والعباس بن الأحنف وابن زيدون وسواهم من الشعراء المحبين، لأنه خال من العاطفة الصادقة التي تمس القلب وتلذه، إذ تشير فيه شعور المحبين.

وكذلك يشترطون استواءها في النشاط، فقد قالوا إن شاعراً رثى المتوكل بقوله: (مات الخليفة أيها الثقلان) فقالوا: جيد، نعى الخليفة إلى الجن والأنس في نصف بيت، ثم قال: (فكأننى أفطرت في رمضان) فضحكوا منه، لانقطاع عاطفته وعدم استوائها في الشعرية.

٣- الخيال: ثم يأتي دور الخيال، ولا أتصور عملاً فنياً يتجرد من الخيال فهو الأداة اللازمة لإثارة العاطفة: وإنما يمتاز بقدرته على عرض الأشياء بأشكالها وألوانها كالرسم والتصوير، ليثير العاطفة ويلهبها، وقد رأيت خيال المعري في تصويره لنا بالزجاج الذي لا يعاد له سبك. وتصوير الأيام في صورة المحطمة العابثة. وإن شئت فأقرأ قول البحترى في رثاء المتوكل:

ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه واذا دُعرت أطلأؤه وجآذره (١)
واذا صيح فيه بالرحيل فهتكت على عجل أستاره وستاره
إنه لا يأمر بالحزن والغضب، ولا يجلجل بفداحة الخطب وهوله،
ولكنه يسلك طريق التصوير المؤثر، فيعرض علينا صوراً أليمة تثير
غضبنا فنغضب كما غضب، وتهز مشاعرنا فنحزن كما حزن، وكذلك
فعل المعرى فى مرثيته من عرض صور الأصوات والأجسام والقبور
والنجوم وغيرها حتى أبكى الناس.

الأسلوب والعبارة:

الأسلوب هو الأداة التى تنقل ما فى نفس الأديب إلى غيره ليحس
بما شعر ويحس بما أحس: فى نفسه من حقائق تسيطر عليها العاطفة
ويصورها الخيال، فما الذى ينقل هذه العناصر النفسية ويذيعها؟ إنها
العبارة أو (نظم الكلام)؟ والعبارة عنصر هام من عناصر الأدب بل هو
أهمها فى رأى بعض النقاد، لأن القدرة على إثارة العواطف - التى هى
وظيفة الأدب - إنما تعتمد اعتماداً قوياً على جمال العبارة ووفائها بحق
الخيال والعاطفة والحقيقة، بحسن سبكها وتأليفها وكونها مرآة صافية
أمانة لما فى نفس الأديب، تلائم موضوعه رقة وعذوبة أو ضخامة وفخامة.
ويعتمد الشعر بنوع خاص على الموسيقى الداخلية التى مصدرها

١- السرب: الجماعة من الطير أو الوحش أو الإنسان. الاطلاء: جمع طلا وهو ولد
الطبية ساعة يولد. الجآذر: جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية. دعر: ريع
وأخيف والمراد نساء القصر.

الألفاظ، إلى جانب موسيقى الوزن والقافية، وهى موسيقى لا يمكن تحديدها، لأنها تعتمد على الذوق الفنى الرفيع ... ولا شك فى أن الصياغة بمثابة الجسم والعاطفة بمثابة الروح، فإذا كان الجسم قوياً أضفى على الروح قوة وجمالاً.

وبعد: فهذه هى عناصر العمل الأدبى عند المحدثين^(١). فالعمل الأدبى - فى إيجاز- إنما يعتمد على ركنين أساسيين، هما القيمة الشعورية، والقيمة التعبيرية، ولا بد أن يتواءم التعبير والشعور، فالأدب الحق: هو تعبير جميل عن المشاعر الإنسانية فى صورة موحية أى صورة توحى بالمعنى أو الشعور، وتدل عليه وتلائمه، وتعانقه.

اقرأ قول المتنبى:

طلبتهمو على الأمواه حتى تخوف أن تفتشه السحاب
يهز الجيش حولك جانيبه كما نفقت جناحيها العقاب
فقد امتلأت نفسه بعاطفة الهيبة والإجلال نحو ممدوحه. فأراد أن ينقل هذا الإحساس إلى نفوس السامعين بتصوير عظمتة وهيئته، فاعتمد على الخيال فى تلوين الفكرة لإثارة النفوس، وإلهاب العواطف حتى تستشعر سلطانه وبأسه على الأعداء، فالسحاب يخشى أن يفتشه، وهو يمشى كالعقاب فى وسط جيشه الذى يهتز جانباه من حوله قوة وبأساً كجناحي العقاب. وأدى ذلك فى لفظ قوى ضخم يلائم العظمة والقوة.

١- راجع كتاب أصول النقد الأدبى للشايب.

والإرهاب، ويوحى بها.

واقراً قول أبي المتاهية:

أنته الخلافة متقادة إليه تجرُّ أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

لتجد الخليفة الجدير بالخلافة، وقد طلبته الخلافة وسعت إليه، تجرر أذيالها في اختيال، وتسرع إليه في انقياد. وهكذا يصل الخيال عمله في تصوير الحقائق، وتلوين الأفكار.

واقراً للبحتري:

شواجر أرماع تقطع بينها شواجر أرحام ملوم قطوعها
إذا احترت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

لترى كيف استطاع أن يشعرنا بالحسرة التي استولت على نفسه من قتال ينشب بين الأقارب قد يعقب الندامة والأسف. فهذا هو عنصر العاطفة، وقد أثارتها في نفوسنا تلك الصورة المحزنة لهذه الرماح المشتجرة التي تقطع الأرحام وهذه الدماء التي تريقها الحرب والدموع التي تسكبها الندامة. وهذا هو عنصر الخيال الذي يقوم على الفنون البيانية من تشبيه واستعارة ونحوهما، أما عنصر الحقيقة فهو القتال الذي وقع بين حيين متقاربين ... وأخيراً هذا الأسلوب الجميل الذي عرض فيه البحتري خواطره وصوره هذا التصوير البديع وهو العنصر الرابع.

أيضاً : تستطيع أن تتناول حقيقة مصلوب معلق في الهواء فتتخيل في هذه الحقيقة ماتخيله الأنباري في رثاء مصلوب. فتثير ماشئت من عاطفة الرثاء أو الإعجاب كما أثارها وتقول معه:
ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضمّ علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجوّ قيرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات
خصائص الأدب:

شغلت قضية اللفظ والمعنى نقاد العرب ردحاً طويلاً، ومن خلالها عكف النقاد على خصائص أدبنا العربي ومزاياه. فاللفظ والمعنى هما عماد الأدب ووعاء الكلام عند العرب، ونستطيع أن نرجع إلى ما كتبه ابن قتيبة في مقدمة كتابه "الشعر والشعراء" عن: ضروب الشعر، لنأتى بضرب منه (حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشنته لم تجد هناك فائدة في المعنى لقول القائل^(١)):

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدّت على خدب المهاري رحالنا ولا ينظر الغادى الذي هو رائح^(٢)
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح^(٣)
هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ماتحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى واستلمنا

١- قال الشريف الرضي، وتروى هذه الأبيات للمعلوك السعدي.
٢- المهاري: أي الإبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان حي من أحياء العرب.
٣- الأباطح: جمع أبطح وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى.

الأركان وعاليتنا إبلنا الأنضاء^(١) ومضى الناس لا ينظر الغادى الرائح
ابتدأنا فى الحديث وسارت المطى فى الأبطح، وهذا الصنف فى الشعر
كثير^(٢).

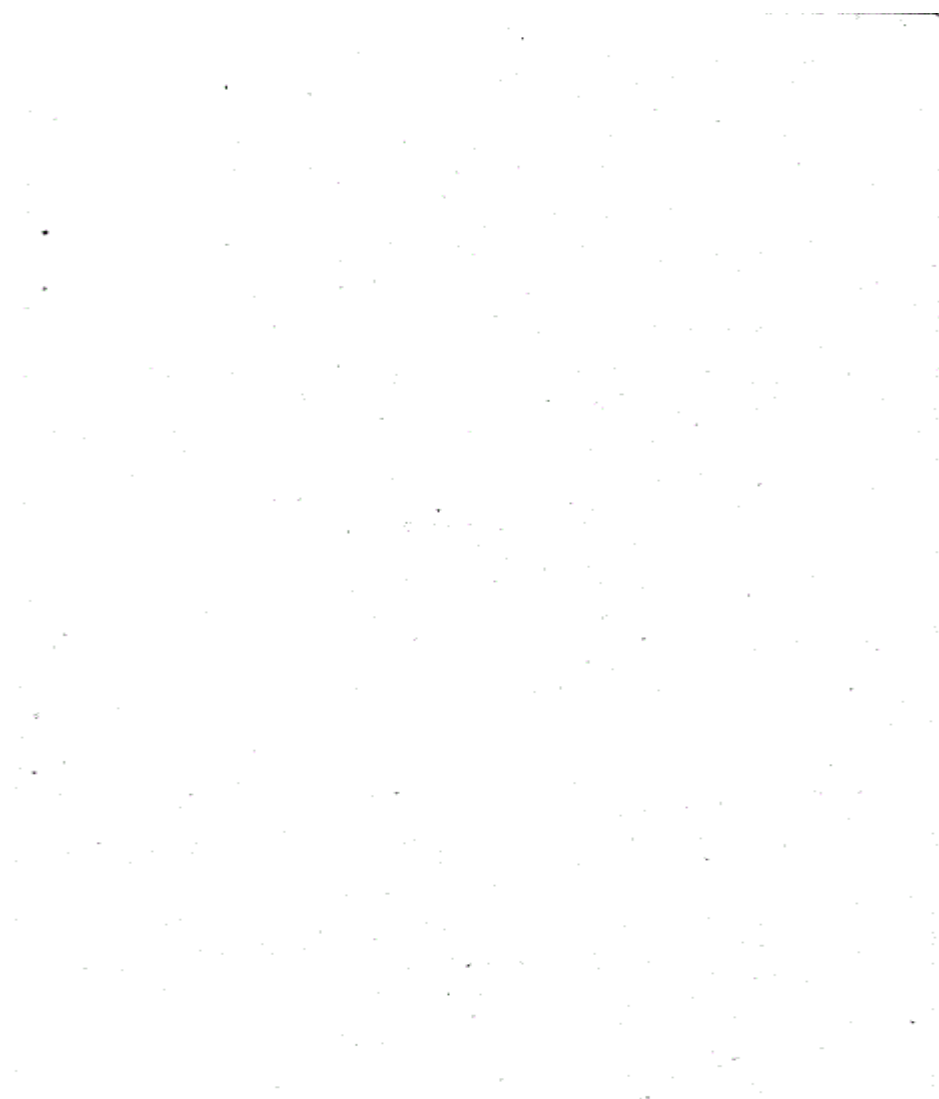
ولو قرأنا ما كتبه الإمام عبدالقاهر الجرجاني عن هذه الأبيات لعرفنا
إلى أى حد استطاع أن يحلل تلك الأبيات إلى عناصرها الأدبية التى
حددها وسماها النقاد المحدثون فى الأمم الغربية ولعرفنا إلى أى حد
شغل النقاد بقضية اللفظ والمعنى^(٣).



١- الأنضاء: الهزيلة.

٢- الشعر والشعراء لأين قتيبة ص ٢٢ ط بيروت.

٣- راجع أسرار البلاغة ص ١٤ - ١٧ ط المنار.



الفصل الرابع

أسواق العرب
وأثرها في اللغة والأدب

كان العرب في العصر الجاهلي يقيمون أسواقاً عامة للتجارة، وكانت هذه الأسواق تستمر طول العام ينتقلون من بعضها إلى بعض. ومن أشهر أسواقهم العربية^(١):

١- سوق عكاظ: وعكاظ قرية بين نخلة والطائف، وكانت تعقد في أول ذي القعدة إلى العشرين منه، وهي أعظم أسواقهم، وقد اتخذت سوقاً بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة أي من عام ٥٤٠م - ٧٤٦م تقريباً وظلت في الإسلام حتى نهبها الخوارج عام ١٢٩هـ حين خرجوا بمكة مع المختار بن عوف.

٢- سوق مجنة: ومجنة موضع بمصر الظهران أسفل مكة على أميال منها، وكانوا ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون فيها إلى نهاية ذي القعدة.

٣- سوق ذي المجاز: بمعنى خلف عرفة، وكانوا يقيمون فيها ثمانية أيام من ذي الحجة، ثم يقفون بعرفة في اليوم التاسع.



وكانت لهم أسواق آخر تتوالى، مثل دومة الجندل^(٢) بقرى كلب وهي في النصف بين العراق والشام، كان ينزلها الناس أول يوم من شهر ربيع الأول، فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء والأخذ والعطاء، وكان يُعْطَرهم

١- راجع الحياة العربية من الشعر الجاهلي د/الحوفي ٦٠-٦٢ وتاريخ آداب العرب للراعي ج ١/٨٧-٩٠، بلوغ الأرب ج ١/٤٦٤.
٢- دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جيل طويق بينها وبين دمشق سبع أميال، وكانت منازل لكثانة من كلب.

أكيدر دومة^(١) وربما غلبت على السوق كلب فيعشرهم بعض رؤساء كلب، فيقوم سوقهم إلى آخر الشهر.
ثم ينتقلون إلى سوق هجر^(٢) في شهر ربيع الآخر، فتقوم أسواقهم، وكان يعشرهم المنذر بن ساوى أجد بنى عبد الله بن دارم. ثم يرتحلون نحو عمان^(٣)، فتقوم سوقهم بديار دبا^(٤) ثم بصحار^(٥) ثم يرتحلون فينزلون إرم^(٦) وقرى الشحر^(٧) فتقوم أسواقهم أياماً. ثم يرتحلون فينزلون عدن ومن سوقها تشتري اللطائم^(٨) وأنواع الطيب ... ثم يذهبون إلى الرابية من حضرموت، ومنهم من يجوزها ويرد صنعاء، فتقوم أسواقهم بها. ثم يرتحلون إلى عكاظ وذى المجاز في الأشهر الحرم، فتقوم أسواقهم بها ... ثم يقفون بعرفة، ويقضون مناسكهم، ثم يتجهون إلى أوطانهم.
وهذه الأسواق كانت تقوم طول السنة، فيحضرها من قُرب من العرب ومن بعد. وكان (بدر) موسماً من مواسمهم يجتمعون في سوقه كل

١- صاحب دومة.

٢- مدينة هجر قاعدة البحرين. وقيل: ناحية البحرين كلها هجر قال ياقوت وهو الصواب.

٣- كورة عربية على ساحل البحر شرقى هجر.

٤- سوق بعمان.

٥- بلدة بعمان على البحر.

٦- فلاة قرب عدن.

٧- على ساحل البحر بين عدن وعمان.

٨- نوافج المسك.

عام(١). فالأسباب التي كانت تقرب بين لهجات العرب أثرت وأنتجت قبل أن تصير لقريش السيادة في الإسلام(٢).

وكانت هذه الأسواق العربية -رغم أنها مكان للتجارة والمقايضة- ميداناً فسيحاً لتبادل الآراء، عرض الأفكار، والتشاور في مشكلات الأمور، ومجالاً للمفاخرات والمنافرات والمحاورات، ومعرضاً لإذاعة مفاخر القبيلة وشرف الأرومة ونادياً واسعاً للإلقاء روائع الشعر، والمباهاة بالفصاحة، والمفاخرة بالبلاغة. وفيها أقيمت أشهر القصائد والمعلقات العربية، فأنشد «عمرو بن كلثوم» معلقته في عكاظ، وكذلك فعل الأعشى الذي أنشد فيها قصيدته في مدح المحلق.

ولقد سبق الإغريق العرب إلى أمثال هذه المحافل في المجتمعات الأولمبية التي كانوا يقيمونها كل أربع سنوات للألعاب والرياضة البدنية كلما حجوا إلى هيكل المشتري في أولمبية. وكانوا يحرمون القتال على أنفسهم في أثنائها على نحو ما يفعل العرب في الأشهر الحرم، فلما استوثق لهم الأمر صارت هذه المجتمعات الأولمبية أندية لإنشاد الشعر وتبادل الأفكار.

وكانت في هذه الأسواق منابر الخطابة في الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته فيذيع فعاله ويعدد مآثره ومآثر قومه وأيامهم عاماً بعد عام.

١- تاريخ الطبري ٢/٢٧٦.

٢- الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص ٦١ - ٦٢.

وكان النقاد والشعراء والرواة يجتمعون فى الأسواق فينشد الشعراء، وينقد النقاد ويذيع الرواة ماسمعه فى كل مكان. وكان *النايفة الديباني* حكماً للشعراء بسوق عكاظ، كانت تضرب له قبة فيه، فتأتية الشعراء ينشدونه قصائدهم فيحكم لبعضهم على الآخرين.

وكان هذا الميدان الأدبى الفسيح بما فيه من آذان مرهفة، وعيون متطلعة وأذواق حصيفة، تحمل الشعراء والخطباء على التجويد والتهذيب والتنقيح وتدعوهم إلى تخير الالفاظ العذبة، والأساليب الجميلة، والمعانى الرائعة قصداً إلى الوضوح والإفهام والإمتاع، ومن ورائهم الرواة يذيعون هذا الأدب المختار فى البلاد، وينشرونه فى القبائل، ويروونه فى كل مكان للسامعين.

وذلك هو الأثر الأدبى الكبير لهذه الأسواق، فوق أثرها الخطير فى توحيد العقائد والأخلاق والعادات، والنهوض الحثيث بالمجتمع العربى والسير به فى طريق الوحدة التى بلغها بعد ظهور الإسلام ونبيه الكريم.



وللأسواق عمل لغوى خطير، فقد كانت سبباً فى التقريب بين لغات العرب ولهجاتهم، فقد كانت تنزل بها شتى القبائل العربية على اختلافها، من قحطانيين وعدنانيين، كما كان ملك الحيرة يبعث تجارته إليها ويأتيها التجار من مصر والشام والعراق.

فكان هذا الاجتماع الخبير وسيلة من وسائل التفاهم والتقارب بين اللغات ولهجات العربية، واختيار القبائل بعضها بعض، وكانت الأذواق العربية في هذه الأسواق تعمل عملها في التمدد الغوي، فتأخذ كل قبيلة لغة الأخرى، ماخف على النطق، وعذير في الألسنة وظهرت فصاحتها من مختلف الألفاظ والأساليب.

وكان القرشيون خاصة من بين قبائل العرب وتأثير اجتماعات الحج، الأسواق والحروب، أكبر قبائل سبأ في النقد اللغوي فاقتسوا من لهجات القبائل أعذبها، ومن ألفاظهم أسهلها وأرقها وأفصحها، وأحدوا يضيفون ذلك إلى لغتهم فزادت ثروة اللغة العدنانية القرشية، وقلدت القبائل الأخرى قریشاً في ذلك، وأخذت عنها محاكية لها في لغتها وذلك لمكانة قریش وإشرافها على هذه الأسواق، مما حدا بالشعراء الذين يريدون لشعرهم الذیوع أن يتحروا لهجتها المختارة الدائغة في إذاعة محامد قبائلهم وأمجادهم، فكان لذلك آثاره البعيدة في تهذيب اللغة العربية وتوحيدها وجمعها في لغة مختارة هي لغة قریش أفصح القبائل العربية، والتي نزل بها القرآن الكريم.

وعمل الأسواق في توحيد الألسنة والتقريب بين اللهجات وتهذيب اللغة العربية كان ذا أثر بعيد في نمو اللغة العربية ونهضتها وانتقالها من طور اللهجات المتباينة واللغات المتنافرة المتناكرة إلى طور جديد، مهد

للوحدة اللغوية بين قبائل العرب، التي نزل القرآن الكريم مؤيداً لها ومديعاً للغة قريش في كل مكان.



وننتقل بعد ذلك إلى الحديث في إيجاز عن سوق عكاظ وأثرها في اللغة والأدب، توضيحاً لأثر الأسواق الجاهلية، وزيادة في معارفنا عن أسرار الاجتماع الجاهلي، لأن هذه السوق كانت تمتاز عن غيرها بأن جميع القبائل كانت تقصدها.

كانت سوق عكاظ ميداناً للتجارة وفداء الأسرى، والمفاوضة في الرأي وتبادل الأفكار، كما كانت ميداناً للمنافرة والمفاخرة وإنشاد القصائد، وكان بها في الجاهلية منابر يقوم عليها الخطباء، فيقف أشراف القبائل مفاخرين بمنابقيهم ومآثر قومهم، كما كانت معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية يلقي فيها الشعر والخطب، ويُنقد ذلك كله ويهذب، ففيها «خطب قس بن ساعدة خطبته التي سمعها رسول الله ﷺ، ورواها، ذلك أن وفد بكر ابن وائل قدموا على رسول الله ﷺ، فلما فرغ من حوائجهم قال: هل فيكم أحد يعرف قس بن ساعدة الأيادي؟ قالوا: كلنا نعرفه. قال: فما فعل؟ قالوا: هلك. فقال رسول الله ﷺ: كأنني به على جمل أحمر بعكاظ قائماً يقول: أيها الناس اجتمعوا واستمعوا، وعوا، كل من عاش مات، وكل من مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، وبحار تموج، وتجارة

تروج، وليل داج، وسماء ذات أبراج، أقسم قس حقاً لئن كان في الأرض
رضا ليكونن بعده سخط، وأن الله عزّت قدرته ديناً هو أحب إليكم من
دينكم الذي أنتم عليه، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا
فأقاموا أم تركوا فناموا؟ ثم أنشد أبو بكر رضى الله عنه شعراً حفظه له وهو:

فى الداهيين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلى ولا من الباقيين غابر
أيقنت أنني لا محالة حيث صار القوم صائر^(١)

وفى سوق عكاظ أيضاً: أنشد عمرو بن كلثوم معلقته، ويقال إن
المعلقات أنشدت فيها، كما أنشد فيها الأعشى مدحته المحيرة فى
المحلق، وممن ألقى فيها مدائحه حسان كما كانت الخنساء تلقى فيه
مراثيها وتعاطم بمصبيتها. وقد سبق أن قلنا: إن النابغة كانت تضرب له
قبة حمراء فى سوق عكاظ ويجتمع عليه الشعراء فيتحاكمون إليه:
أتاه الأعشى يوماً فأنشده، ثم أتاه حسان، فقال: لولا أن أبابصير
أنشدنى أنفأ، لقلت: إنك أشعر الجن والإنس، قال حسان: والله لأنا أشعر
منك ومن أبليك وجدك، فغضب النابغة على يده، وقال: يا ابن أخى أنت لا
تحسن أن تقول:

١- الحياة العربية من الشعر الجاهلى ٦٠

فانك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
ثم أتته الخنساء فأنشدته:
قذى بعينك أم بالعين عوار أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار^(١)
فلما بلغت قولها:
وإن صخرأ لتأتى الهداة به كأنه علم فى رأسه نار
قال: ما رأيت ذا مثانة أشعر منك.
ويروى أنه قال لها: لو أن أبابصير سيقك لقلت: إنك أشعر من
بالسوق، ويروى أنه قال لحسان حين بلغ قوله من قصيدته:
لنا الجففات الغر يلمعن بالضحي وأسيفنا يقطرن من نجده دماً
ولدنا بنى العتقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما
قللت جفانك ولو قلت: الجفان لكنت أكثر، وفخرت بمن ولدت ولم
تفخر بمن ولدك، وقلت يلمعن بالضحي، ولو قلت يبرقن بالدجى لكان
أبلغ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً^(٢).
وكذلك قصدت هند بنت عتبة بن ربيعة هذه السوق حين قُتل أهلها فى
بدر، وقرنت جملها بجمل الخنساء، وأخذت كل منهما تعاضم الأخرى
بمصائبها وتساجل فى الشعر لوعة بلوعة، ورثاء برثاء!!

١- العوار والعائر كل ما أعل العين أو الرمد والقذى.
٢- الأغاني ج ٨ ص ١٩٤، ١٩٥ والجففات الفصاع الكبيرة.

وكان على سوق عكاظ رئيس يشرف على الموسم ويقضى بين المتخاصمين، ومن الرؤساء عامر بن الظرب العدواني، واستمرت تلك الحكومة على هيئتها في الإسلام وكان محمد بن سفيان بن مجاشع قاضياً لها، وكان أبوه يقضى فيها في الجاهلية، وقد قصدها الرسول الأعظم يبيت فيها دعوته وبقيت حتى نهبها الخوارج عام ١٢٩هـ كما ذكر.



هكذا كان للأسواق أثر خطير في تهذيب اللغة وتوحيد اللهجات، ونهضة الأدب وتجويده، ونشر الشعر وترديده، كما كانت نواة لنشأة النقد الأدبي ومهداً لنموه، على نحو ما رأينا في عكاظ التي كان يقصدها المفاخر بالنسب والحسب، والمتبحر بالفصاحة واللسن، والمحزون الذي يجد فيها متنفساً للواعجه إلى غير ذلك من الأعراض الاجتماعية والاقتصادية.

وقد عرض الأستاذ (ليونارد كنج) في كتابه: تاريخ هارمزورث العالمي لسوق عكاظ وبيّن أثرها فقال:

"وفي أيام ما قبل الإسلام على بعد يوم فقط من مكة كان يقام السوق والمجتمع السنوي العظيم: سوق عكاظ، نسبة إلى السهل الذي كان يقام فيه، كان يأتيه الناس من جميع الطبقات من كل فج في الجزيرة، ويستمر شهر ذي القعدة الذي كان يسبق شهر الحج في الجاهلية كما يسبقه في الإسلام، فيه كانت المسابقات بين الخيل، والألعاب وتناشد الأشعار،

وجميع أنواع الملاحى تروّح على الناس عناء الأعمال التجارية فى سوق عام يكاد فى شموله واتساعه يكون معرضاً قومياً، وفيه أيضاً كان الرؤساء من عرب الشمال ينظرون بينهم فى أمهات الأمور من حرب وسلم، وحلف وتعاهد، وثأر وتقاض، فكان أولاد نزار - كما كانت العرب المستعربة تحب أن تدعى - يجتمعون فى نوع من منتدى عام لا يقل عراقة فى القدم عن منتدى طيبة، وإن كان أثره مادام قائماً أكبر فى بلاد العرب كلها مما يمكن أن يكون قد أتيح لمنتدى طيبة فى قديم اليونان، وكان لرؤساء قريش المقام الأول فى ذلك المجتمع، لقربه من ديارهم ولما كان لهم من ثروة وشجاعة وحسن خطاب^(١).

وبعد، فقد كانت هذه الأسواق على مقربة من مكة، والعرب جميعاً يدينون لقريش بسيادة دينية كما قدمنا، فهم يحاكون لهجتها، ويتأثرون منطقتها، وقريش أيضاً تنتقى من لهجاتهم أفصحها، ومن كلماتهم أعذبها. فليس فيها شئ من معيب اللهجات، سلمت لغتهم من "الخلخانية" الفرات^٢، و"عننة تميم"^٣، و"كشكشة ربيعة"^٤، و"كسكة بكر وهوازن"^٥، و"غممة قضاة"^٦، و"طمطمانية حمير"^٧، و"تضجج قيس"^٨، و"عجرفة

١- النقد التحليلي لكتاب الأدب الجاهلي ٢١١-٢١٢.

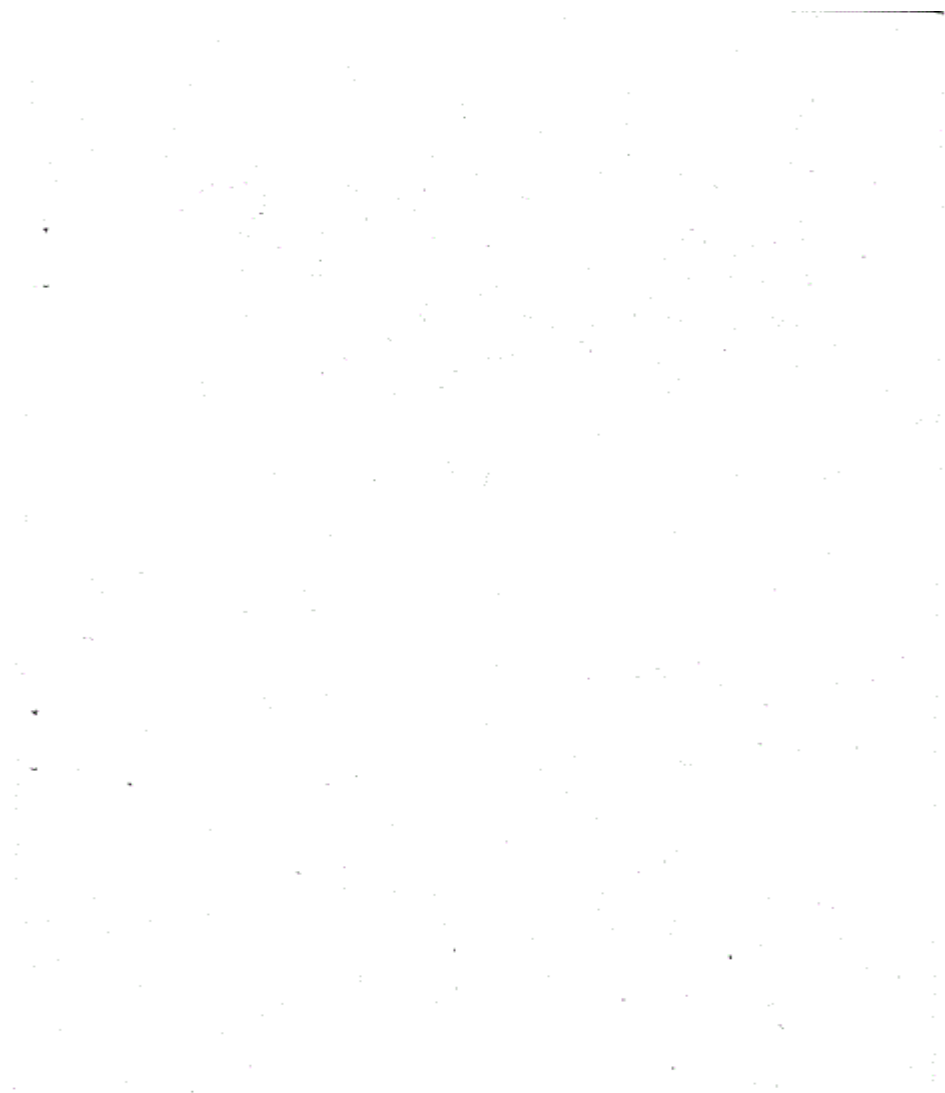
ضبة^٥، و^٦ تلتلة بهراء^(٧).

وبذلك كله بلغت اللغة درجة من الرقي والوحدة أعدتها لأن ينزل القرآن الكريم بأسمى لهجاتها وهي لهجة قريش، فتحت به الوحدة اللغوية، ومازال القرآن الكريم هو الحفيظ على هذه الوحدة والدرء لهذه اللغة، يصونها من أن تمحوها التوازل، أو تتشعب منها لهجات مختلفات تقطع صلتها بالنبع الأول فينضب ويجف^(٧).



١- لخلخانية الفرات أو العراق: لهجة لأعراب الشجر وعمان باليمن يحذفون بعض الحروف اللينة كتقولهم مشاء الله يريدون ماشاء الله، والظاهر أن بعضهم نزلوا يشط الفرات بعد الإسلام. الكسكة: لهجة لبنى بكر ابن وائل أو ربيعة ومضر أو تميم يلحقون بعد كاف الخطاب للمذكر أو مكانها سينا. القمخمة: الكلام المبهم. الطمطمائية: لهجة جمير يبدلون لام التعريف ميما مثل أنصيام في الصيام.

٢- راجع الحياة العربية من الشعر الجاهلي د. الحوفي ص ٦٣-٦٤.



الفصل الخامس

مصادر الشعر الجاهلي

(أ) روايته:

(ب) تدوينه:

(أ) روايته:

تولى الشعراء بأنفسهم مهمة رواية الشعر في العصر الجاهلي، فكان منهم من اتخذها وسيلة لصقل موهبته، وفتح شاعريته، فأخذ يحفظ ويروى لشاعر كبير أو أكثر، كما أخذ زهير عن أوس بن حجر، وكما أخذ كعب بن زهير والحطيئة عن زهير. وكان منهم من أخذ على نفسه برواية أشعار الشعراء من قبيلته، اعتزازاً بنسبته إليها وقربته منها، كما قالوا: إن الأعشى كان رواية لخاله المسيب بن علي.

ومن الشعراء من زهد في اصطناع الرواية رغبة في التلمذة على شعراء أكبر منهم، ولا صلة بقبيلة تحملهم على التفتى بالشعر المصور لأمجادها، وإنما يجمعهم سلوك واحد في الحياة، أو مذهب يلتقون عليه، فيحفظ بعضهم لبعض، ويروى بعضهم عن بعض، كالشعراء الصعاليك والفرسان.

وإلى جانب هؤلاء جميعاً كان أفراد كل قبيلة من غير الشعراء يهتمون برواية شعر شعرائها، ويرددونه في كل مكان، باعتباره ممثلاً لمفاخرها ومناقبها، ومسجلاً لمطالب أعدائها، وإلى مثل هذا يشير بعض الشعراء وهو يعمر بنى تغلب لكثرة ترددها لمعلقة عمرو بن كلثوم، بقوله:

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم!

بل كان هناك رواة لا يختصون بقبيلة ولا بشاعر، إنما كانوا يتناقلون الشعر من كل شاعر، ومن كل قبيلة، ويملاؤن به محافلهم ومجالسهم

وأسواقهم، باعتباره سجلاً عاماً للأخبار والأنساب والمآثر والوقائع، ولم يكن لهم شاغل سواه. ولهذا يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه^(١).



وأطرد سير الرواية في عصر صدر الإسلام، فلم يعق مجراه عائق، إذ كان الرسول ﷺ كثيراً ما يستنشد الصحابة الشعر، ولو كان شعر أعدائه كأمية بن أبي الصلت، كما يقول الشريد بن سويد الثقفي: استنشدني النبي ﷺ شعر أمية، فأنشدته وهو يقول: هيه هيه، حتى بلغت مائة قافية^(٢)، وكذلك كان الصحابة يتناشدون أشعار الجاهلية وأخبارها، قال جابر بن سمرة: جالست رسول الله ﷺ أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار بالمسجد وأشياء من أمر الجاهلية، فربما تبسم رسول الله ﷺ^(٣)، وكان أبو بكر - رضي الله عنه - نسيابة راوية للشعر الجاهلي، وكثيراً ما كان يتمثل به في خطبه، وكان عمر لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر كما يقول ابن سلام!

ثم كان هناك ما يدفع إلى الاهتمام بالرواية، كتدوين الدواوين في عهد عمر، حيث أقتضى هذا التدوين معرفة الأنساب لأهميتها في رواتب الجند الفاتحين وفي مراكز القبائل بالمدن الجديدة، وكان النسابيون من أمثال

١- طبقات الشعراء لابن سلام ص ٢٢.

٢- راجع ابن سعد وغزاة الأدب والمزهر.

٣- طبقات ابن سعد.

عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل، يستشهدون بالشعر في تحديد الأنساب.

ومنذ اشتعال الحرب بين علي ومعاوية حتى نهاية العصر الأموي، والعصبيات القبلية تدفع كل قبيلة إلى العناية برواية شعرها الجاهلي، لتردّ به على خصومها، بما يسجله من مآثرها ومفاخرها ومثالب أعدائها، فكان ذلك أيضاً من عوامل العناية برواية الشعر الجاهلي حتى عصر التدوين^(١).



وفي العصر الأموي: توفرت للرواية أسباب الرعاية والعناية، وأتيح لهذا التراث الجاهلي من يتلقفه ويحفظه، فقد كان الملوك والخلفاء من أمثال معاوية وعبد الملك بن مروان يُعنون أشدّ العناية بالشعر والشعراء، حتى كانوا يسألون وفود القبائل عن بعض شعرائها، وقد يرصدون الجوائز لمن يدلهم على صاحب بيت أو قصيدة، وقد يختلفون في بيت من الشعر فيكتبون فيه البريد إلى العراق، ويسألون العلماء عن حقيقته وصحته. ثم إنهم كانوا يتخذون لأبنائهم المؤدّبين الذين يعلمونهم أشعار الجاهلية وأيامها وأخبارها، على النحو الذي أشرنا إليه من قبل في تطور

١- راجع (العصر الجاهلي) للدكتور شوقي ضيف.

مدلول كلمة (أدب) (١).

وكانت هناك طائفة (القصاصين) تعظ الناس في المساجد، وهؤلاء كثيراً ما كانوا يروون للناس في ثيابا مواعظهم الأشعار الجاهلية التي تتصل بقصصهم.

ولم يكن ثمة شاعر مبرز في هذا العصر إلا وهو يروى للجاهليين، فقد عني الشعراء برواية الشعر القديم، حتى أخذ العلماء عنهم الكثير، ومنهم ذوالرمة والفرزدق وجرير ورؤبة (٢).

كما نشأت في هذا العصر طائفة أخرى من الرواة، لم تكن من الشعراء، ولا قصدت إلى تعلم الشعر، إنما كان همها ترويح الشعر ونشره وإذاعته في الناس، وكان منهم من يختص برواية شعر عصره، ومنهم من يختص في رواية الشعر الجاهلي.



فلما كان العصر العباسي نشأ من العرب والموالي ومن يعرف القراءة وغيرهم، رواة تخصصوا فيها، واحتشدوا لها، واهتموا بها، حتى أصبحت عملاً أساسياً لهؤلاء الرواة، وقد ساعد على الاهتمام بها الاعتماد على الشعر الجاهلي والاستشهاد به في تفسير ألفاظ القرآن الكريم، وفي وضع قواعد العربية وجمع ألفاظها.

١- للجاحظ في البيان والتبيين فصل طويل يخصص فيه أسماء هؤلاء المؤرخين.

٢- مصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد/٩.

وكان هؤلاء الرواة في جملتهم يمثلون مدرستين كبيرتين هما : مدرسة البصرة وإمامهم فيها أبو عمرو بن العلاء، ومدرسة الكوفة، وعلى رأسها حماد الراوية، ولكن البصرة كانت أوثق رواية من الكوفة التي اشتهرت بالوضع والانتحال، حتى تضخمتم رواياتها، ودخلها الكثير من المصنوع. يقول أبو الطيب اللغوي: "والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله، وذلك بين في دواوينهم^(١)".

ورواه البصرة والكوفة على العموم تختلف مراتبه من حيث الجرح والتعديل تبعاً للأمانة في الرواية أو عدم الدقة والتحري فيها. ومن أشهر هؤلاء الرواة:

- ١- أبو عمرو بن العلاء، وهو رأس رواة البصرة (٧٠-١٥٤هـ)، وهو من أعلام المدرسة النحوية، وأحد القراء السبعة، وكان ثقة حجة أميناً تقياً صالحاً، كما كان أعلم الناس بالفريسي والعريبي والقرآن والشعر، وربما اكتسبت البصرة به سمعتها في صنعة الرواية وأمانتها!
- ٢- حماد الراوية (٩٥-١٥٦هـ) وهو رأس الرواة بالكوفة، وكان من الموالى شاعراً يحسن صوغ الشعر، كما كان أعلم الناس بكلام العرب، وأعرفهم بمذاهب الشعراء وطرائقهم في التعبير، إلا أنه كان فاسقاً، فاسد المرؤة ماجناً زنديقاً، استغل موهبته هذه في انتحال

١- مراتب النحويين ص ٧٤.

الشعر ووضع على لسان الجاهليين، وقيل إنه كان يحفظ لكل حرف من حروف الهجاء مائة قصيدة وقد ساعده ذلك على معرفة مذاهب الشعراء الذين ينطقهم بما لم يقولوا. يقول ابن سلام في طبقاته: كان أول من جمع أشعار العرب حماد الراوية، وكان غير موثوق به، كان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار^(١). ويقول المفضل الضبي: قد سلط على الشعر من حماد ما أفسده، فلا يصلح أبداً، إنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل، ويدخله في شعره، ويحمل ذلك عنه في الأفاق...^(٢).

٣- خلف الأحمر (١١٥-١٨٠هـ) وهو من رواة البصرة المشهورين، من الموالي، وهو مثل حماد بالكوفة، إجادة لنظم الشعر، ومعرفة بمذاهب الشعراء، ومع أن ابن سلام يشهد له بقوله: كان أفرس الناس بيت شعر، وأصدقهم لساناً^(٣)، إلا أن كثيراً من الرواة الثقات اتهموه اتهام حماد. قال الأصمعي: إنه وضع على شعراء عبد القيس شعراً كثيراً، وعلى غيرهم^(٤)، وقال المبرد: لم ير أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه، وكان به يضرب المثل في عمل الشعر، وكان يعمل على ألسنة الناس،

١- طبقات الشعراء: ٤٠.

٢- الأغاني ٨٩/٦ ومعجم الأدباء ٣٦٥/١٠.

٣- طبقات الشعراء: ٢١.

٤- مراتب النحويين: ٤٧.

فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه .. ثم نسك فخرج إلى أهل الكوفة فعرفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس. فقالوا: كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة، فبقى ذلك في دواوينهم^(١). وقد شهد هو على نفسه فزعم أنه كان يعطى حماداً المنحول فيقبله منه ويروي^(٢). ويقال: إنه وضع لامية العرب على الشنفرى.

٤- ومن الرواة الوصّاعين: برزخ العروضي، وجناد، ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام.

٥- ومن الرواة الثقات: الأصمعي (١٢٢-٥١٥هـ) بالبصرة، وقد شهد له معاصروه بسعة علمه بالجاهلية وأشعارها، ووثقوه وعدلوه. يقول ابن جني: "وهذا الأصمعي هو الرواة والنقلة، وإليه محط الأعباء والثقل^(٣)". وقال عن أبي الطيب اللغوي: "لا يُفتى إلا فيما أجمع عليه العلماء، ولا يجوز إلا أفصح اللغات^(٤)". كذلك: المفضل بن محمد الضبي المتوفى سنة ١٧٠هـ، وهو من رواة الكوفة، وكان عالماً دقيقاً بشعر الجاهلية، ويجمع رواة البصرة والكوفة على توثيقه. وهو صاحب كتاب (المفضليات) من أشعار الجاهليين.

١- مراتب النحويين: ٤٧.

٢- الأغاني ٩٢/٦.

٣- الخصائص: ٣١١/٣.

٤- مراتب النحويين: ٤٩.

٦- وهناك غير هؤلاء: أبو زيد الأنصاري صاحب كتاب (جمهرة أشعار العرب) وقد توفي سنة ٢١٥هـ، وأبو عبيدة البصري صاحب (النقائض) و(إعجاز القرآن) توفي سنة ٢٠٩هـ، ثم أبو عمرو الشيباني المتوفى (٢١٣هـ) وابن الأعرابي م/ (٢٣١هـ) وابن السكيت م/ (٢٤٤هـ)، ثم أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري الذي انتهت إليه الرواية بالبصرة، وجمع كثيراً من دواوين الجاهليين، وتوفي سنة ٢٧٥هـ، ثم ثعلب المتوفى سنة ٢٩١هـ^(١).



١- راجع في هذا الفصل كتاب (العصر الجاهلي) لشوقي ضيف.

(ب) تدوين الشعر الجاهلي:

عرف العرب الكتابة في العصر الجاهلي، واستخدموها في بعض أغراضهم كما تشهد بذلك النقوش التاريخية، والآثار الشعرية التي خلفها الجاهليون. فالمرقس الأكبر يقول:

الدار قفرٌ والرسومُ كما رُقش في ظهر الأديمِ قلمُ
والأخنس بن شهاب التغلبي يقول:

لاينة حطان بن عوف منازل كما رُقش العنوان في الرق كاتبٌ
وليبد يقول في معلقة:

وجلا السيول عن الطلال كأنها زبر تجد متونها أقلامها



والرسول عليه الصلاة والسلام يجعل فداء الأسير في بدر تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة، وكان له كتاب الوحي^(١) وذلك يدل على أن الكتابة كانت معروفة لديهم شائعة عندهم، وعلى الأخص في الحواضر كمكة والمدينة والحيرة.

ولكن العرب لم يستخدموا الكتابة في تدوين أشعارهم، ولو أنهم فعلوا ذلك لوجدنا من الرواة من يذكر أنه نقل عن قرطاس مكتوب في الجاهلية، أو يزعم أن شاعراً جاهلياً كان يلقي قصيدته من صحيفة مكتوبة، وهذا لم يحدث، يقول الجاحظ: ^١ وكل شيء للعرب إنما هو بديهة وارتجال، وكأنه

١- راجع طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٤٠، ١٤١.

الهام. فما هو الا أن يصرف العربى وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذى إليه يقصد، فتأتيه المعانى أرسالاً: وتنثال عليه الألفاظ أنشياً، ثم هو لا يقيده على نفسه (١).

ويقول ابن سلام: لما كثر الإسلام وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب فى الأمصار راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير (٢).

وما قيل من أن التعليقات كانت قد كتبت وعلقت على الكعبة، فأمر لا يخرج عن مجال التخمين والحدس، لمحاولة تفسير التعليق. على أن كثيراً من المحققين لم يرتضوه كما سيأتى.

وإذا كان القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف لم يدونا إلا بعد الرسول عليه السلام، وبعد تردد كبير استمر فترة طويلة، وهما ركنا الشريعة، وعماد الحياة الجديدة وحاجاتها الدينية، فكيف يمكن أن نزع من العرب كانت عندهم فكرة الجمع والتدوين؟ ولا يمكن أن نتجاهل صعوبة وسائل الكتابة فى الجاهلية، من الحجارة والجلود والعظام وسعف النخيل، ولهذا صُرفت العرب عن تدوين أشعارها وكانوا يستخدمون تلك الوسائل الصعبة فقط فى المهام السياسية والضرورية.

١- البيان والتبيين ٢٨/٣.

٢- طبقات الشعراء ص ٢٢.

ولهذا خفى علينا - كأكثر الأمم - مبدأ قول الشعر، وأول من قاله! أما ما نسب من الشعر إلى آدم وإبليس والملائكة والجن والعرب البائدة فهو حديث خرافة. والشعر الذي صُنِّحت روايته منذ أواسط القرن الثاني قبل الهجرة ينتهي أقدم مطولاته إلى مهلل بن ربيعة وأقدم مقطعاته إلى نفر لعلمهم لم يبعدوا عنه طويلاً مثل العنبر بن عمرو بن تميم ودريد بن زيد ابن نهد، وأعصر بن سعد بن قيس عيلان وزهير بن جناب الكلبي، والأفوه الأودي وأبردود الأيادي وقد رووا أنه لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وأن أول من قصَّد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب، فهو أول من روي له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً، وتبعه الشعراء مثل امرئ القيس وعلقمة وعبيد ممن أخرجوا لنا الشعر العربي في صورته الحاضرة (١).



ويبدو أن فكرة تدوين الشعر الجاهلي بدأت منذ أوائل القرن الثاني الهجري فقد ذكروا عن حماد الراوية أنه تعلق بالشعر منذ نَقِب على بيت رجل، فسرقه، وكان فيما أخذه جزء من أشعار الأنصار. ويروى عن ثعلب أن الوليد بن يزيد قد جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها ولغاتها، وأنه من أجل ذلك طلب من حماد وجناد الكوفيين ما عندهما من هذا

١- جواهر الأدب للهاشمي ص ٣٤٢ ط ١٩٨٣م.

الديوان^(١).

وكان أبو عمرو بن العلاء إلى جانب اعتماده على الرواية يقيد كثيراً من الأشعار والأخبار، حتى ملأت كتبه بيتاً له^(٢). وتروى للمفضل الضبي كتب فيها أشعار وأخبار^(٣). غير أن الثابت أنه لم يكتب المفضليات. ولكنه أنشدتها تلاميذه.

ومع ذلك فقد كان الرواة بصفة عامة يتخرجون من تدوين الشعر، لأنه يحتاج إلى تلقين خوفاً من اللحن فيه.

ومهما يكن من شيء فإن هذا التدوين -إذا صح- كان تدويناً تاريخياً عاماً للقبائل وأخبارها وأشعارها، ولم يكن تدويناً منهجياً قائماً على الدقة والجرح والتعديل.

أما التدوين الحق فقد نهض به جماعة من الرواة في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث، وعلى رأسهم الأصمعي الذي اهتم بجمع الشعر الجاهلي في دواوين ومجموعات صحيحة.

وكان هؤلاء الرواة لا يدونون إلا ما يستوثقون منه، بل كانوا يرحلون إلى الصحراء للتحقق من صحة ما سمعوه. قالوا: إن أبا عمرو الشيباني دخل البادية ومعه (دستيجتان) من حبر، فما خرج حتى أفناهما في كتابة

١- الفهرست لابن النديم ص ١٣٤.

٢- البيان والتبيين ١/٣٧١.

٣- أنباء الرواة ٣/٣٠٢.

ماسمع من العرب^(١) كما كان بعض الأعراب يفدون على الحواضر
لإشباع نهم الرواة فيما يدونون.

هكذا تتسع حركة التدوين والتأليف، حتى نرى هشام بن محمد الكلبي
يؤلف نحو ١٤٠ كتاباً، ومثله المدائني، ويؤلف الهيثم بن عدي خمسين
مصنفاً. وقد فقد معظم هذه المصنفات، وبقي القليل. مثل كتاب
(الأصنام) لابن الكلبي.

على أن كثيراً من المؤلفين، وخاصة المؤرخين، لم يتحروا الدقة فيما
جمعوه ودونوه، مثل اسحق صاحب السيرة النبوية، الذي حشد في كتابه
كل غث، وكل مصنوع، ولم يكن له علم بالشعر، يقول عنه ابن سلام:
(وكان ممن أفسد الشعر وهجنه، وحمل كل غثاء منه، محمد بن اسحق بن
يسار... كتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط، وأشعار
النساء، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعاراً كثيرة. وليس
بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف...^(٢)).

كما أن ابن هشام صاحب السيرة تعقبه كذلك في سيرته، ورفض كثيراً
ممارواه أو صحح نسبه.

وهكذا أتيح لهؤلاء الوضّاعين والمحرفين من يتعقبهم من الثقات
العدول فيميز الصحيح من الزيف.

١- نزعة الألباء للأنباري: ٦٣.

٢- طبقات الشعراء ص ٨.

ونمضى فى مجال التدوين، حتى نجد أبا عمر الشيبانى يجمع أشعار أكثر من ثمانين قبيلة. ثم نرى السكرى يجمع كثيراً من الدواوين، من بينها (ديوان هذيل)، وهو يعدُّ أهم راوٍ فى النصف الثانى من القرن الثالث، ويجمع بين الروايتين: البصرية والكوفية.

وينتهى القرن الثالث، وقد عرفنا فيه إلى جانب ذلك من المؤلفات الجامعة: حماسة أبى تمام، و(البيان والتبيين) للجاحظ، و(الكامل) للميزد، و(عيون الأخبار) لابن قتيبة، و(الشعر والشعراء) له أيضاً.

وتتسع موجة التأليف فى القرن الرابع، حتى نرى مثل: (الأغاني) للأصبهاني و(الأمالي) للقالى، و(الموشح) للمرزباني، وغيرها من مؤلفات ابن دريد وابن الأنبارى. وكان هؤلاء يسلطون رواياتهم، حتى ينتهوا بها إلى الثقات من أمثال ابن العلاء والضبي.

ونعمل من المفيد أن نشير هنا إلى أهم مصادر الشعر الجاهلى، مما جمعه ودونه هؤلاء العلماء والرواة، من منتخبات عامة، أو دواوين للشعراء أو القبائل:

١- المعلقة: وهى أول ما يمثل الأدب الجاهلى، ويقال: إن أول من جمعها، حماد الراوية، وقد جعلها سبماً: لامرى القيس، وزهير، وطرفة، ولييد، وعمر بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وعنترة. وجعلها المفضل الضبي فى المفضليات سبماً كذلك، ولكنه أسقط ابن حلزة وعنترة، وأثبت مكانهما الأعشى والنايف. ثم جعلها التبريزى فى

شرحه عليها عشراً، فجمع بين الروايتين، وأضاف قصيدة (أقفر من أهله ملحوب) لعبيد بن الأبرص. وقد شرحها الزوزني على رواية حماد وقد عرفت تلك القصائد بمسميات كثيرة أشهرها: المعلقات السبع، والمذهبات والمشهورة والمشهورات، وسماها الباقلاني في كتابه (عجاز القرآن) (السبعيات) (١).

وقد دار خلاف طويل بين الأدباء قديماً وحديثاً حول تسميتها بالمعلقات والتعليل لذلك: أنها عُلِّقت على أستار الكعبة: فقد جاء في العقد الفريد أن العرب قد شغفها الشعر قديماً فعمدت إلى سبع قصائد تخيَّرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي وعلقتها في أستار الكعبة، فمنه يقال: مذهبٌ امرئ القيس ومذهبٌ زهير ... والمذهبات السبع وقد يقال لها المعلقات (٢).

وقال البغدادي في خزانته: "ومعنى معلقة: أن العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يُعبأ به ولا ينشده أحد، حتى يأتي موسم الحج فيعرضه على أندية قريش فإن استحسوه روى وكان فخراً لقائله وعُلِّق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه وإن لم يستحسنوه طُرح ولم يُعبأ به"، ثم قال: "روى أن بعض أمراء بني أمية أمر من اختار له

١- عجاز القرآن للباقلاني، ص ٢٢٢.

٢- العقد الفريد لابن عبدويه، ج ٥/ ٢٦٩.

سبعة أشعار فسّأها المعلقات^(١).

والعجيب أن أئمة الأدب منهم الجاحظ والمبرد وصاحب جمهرة أشعار العرب وصاحب الأغاني لم يؤثر عنهم تلك التسمية ولا التعليل لها ولم يعترفوا بتسمية تلك القصائد (بالمعلقات) كما أن الشراح المشهورين لتلك القصائد لم يذكروا أنها معلقات كابن الأنباري وابن النحاس وابن التبريزي.

وفي العصر الحديث نقرأ للدكتور بدوي طبانه كتاباً بعنوان: معلقات العرب، ط سنة (١٩٥٨م) يؤيد فيه التسمية والتعليل لها، كما نقرأ للدكتور أحمد الحوفي بحثاً في كتابه (الحياة العربية من الشعر الجاهلي) يرى فيه أنها (معلقات غير معلقات).

فيقول: وأغلب الظن أن قصة التعليق دعوى عن ابن الكلبي أو ادعاها غيره وعزاها إليه، دفعه إلى اختراعها أنه رغب في تحبيب الشعر الجاهلي إلى الناس، حين بدت بوادر الانصراف عنه إلى الشعر الإسلامي. ولعله قايس دعواه هذه بتعليق قريش للصحيفة، لما اعتز الإسلام بحمزة وعمر، وتعاهدت قريش على أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على مقاطعة بني هاشم، فكتبوا بذلك صحيفة وعلّقوها في جوف الكعبة، توكيداً لها، وتوثيقاً من وفائهم.

ثم لنفرض أن هذه القصائد سُميت بالمعلقات لأنها علّقت، فإن الذي

١- خزنة الأدب للبغدادي ج ١/٦١ - ط بولاق.

أرجحه أنها لم تعلق على الكعبة، وإنما استمدت هذه التسمية من طريق آخر: فمن الجائز أنها عُلِّقت في سقف أو على جدار مطوية على عمود أو ما يشبهه، لأن العرب لم يكتبوا قبل القرآن كتاباً مدقفاً، وإنما كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد، يوصل بعضها ببعض، ثم تطوى على عود أو خشبة، وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة أو سقف الدار، حرصاً عليها من العثة أو الفأرة، كما يفعل بعض سكان الريف المصرى في صيانة ما يهتمون به من أوراق.

ويصح أن التسمية نشأت من إطلاق العرب على القصيدة الجيدة سمطاً -كما سمّت قریش قصائد علقمة- والسمط العقد النفيس الذى يحلى به الجيد، قال المفضل الضبي: هؤلاء أصحاب السبع الطوال التى تسميها العرب السموط^(١)، ثم أطلقوا على هذه القصائد المعلقة السبع بدل السموط السبع، لأن السمط يعلق، وكانت خفة اللفظ سبباً فى شيوعه وغلبته على لفظ السموط.

وربما كان الباعث على هذه التسمية -كما ذكر أبو جعفر النحاس- أن الملك كان إذا استحسّن قصيدة قال: علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزانتي. وقد ردد ابن رشيق هذا الرأى فى قوله: *وقيل بل كان الملك إذا

١- جمهرة أشعار العرب ٤٥.

استجيدت قصيدة الشاعر يقول: علقوا لنا هذه، لتكون في خزانته^(١).
لكن أبا جعفر وابن رشيق لم يذكر اسم هذا الملك الكلف بالشعر، فهل
نستطيع أن نقف على اسمه؟
أرجح أنه النعمان بن المنذر (حوالي ٥٨٠ - ٦٠٢) لأن ابن سلام يقول:
«وقد كان للنعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو
وأهل بيته، فصار ذلك إلى بني مروان أو صار منه^(٢)». وابن جني يقول:
أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطنوج - الكراريس - ثم دفنها
في قصره الأبيض، فلما كان المختار بن أبي عبيد، قيل له: إن تحت
القصر كنزاً، فاحتفزه فأخرج تلك الأشعار^(٣).
وليس في هذا ما يدعو إلى العجب أو الإنكار، فانه من الخطأ الظن أن
الشعر لم يدون إلا في أواخر العصر الأموي وأوائل العباسي، ذلك بأن
بعضه كان مدوناً في العصر الجاهلي، وبعضه كان مدوناً في صدر الاسلام
في عصر ابن الخطاب.
وليس هناك ما يمنع من تسميتها بالمعلقات على معنى أنها علقت
بالأذهان لنفاساتها وامتيازها.
وللمستشرقين في تحليل التسمية بالمعلقات آراء لا تبعد عن هذا، فقد
عرض «نيكلسون» رأيه، ولخص آراء بعضهم في قوله: إن كلمة معلقة

١- العمدة ٦١/١.

٢- طبقات الشعراء ٢٣.

٣- الخصائص ٣٩٣/١.

مشتقة في الغالب من كلمة علق أى ثمين نفيس، وقد يكون المقصود بها أن الإنسان يعلق بها، أو أنها تعلق في مكان الشرف، أو في مكان أمين. على أنه وردت تفسيرات أخرى عدة، منها في رأى "فون-كرامر" أنها الأشعار التي دُوت، وفي رأى "مولر" أنها القصائد الجواهر، أو السموط. ولكن بمرور الزمن نسى الناس المعنى الحقيقي للمعلقات، وصار من الضروري البحث عن تفسير معقول للكلمة، ومن نشأت الرواية التي كررت حتى ألقت، وهي أن المعلقات استمدت تسميتها من تعليقها على الكعبة، لأنها قصائد ممتازة ... ولو أن هذا كان صحيحاً لوجدنا في النصوص القديمة ما يؤيده، ولكننا لم نجد شيئاً يؤيده في القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو في تاريخ مكة، أو في المؤلفات القديمة التي تستمد أخبارها من مصادر قديمة موثوق بها^(١). والذى أميل إليه: أن التسمية والتعليل لها ضرب من الخيال والأساطير ويؤيد هذا:

أ) ما أوردناه عن أئمة الأدب والشرح المذكورين.

ب) كما أن القرآن -على قداسته- لم يجمع في مصحف واحد إلا بعد وفاة الرسول ﷺ. وبعد مشاورة الصحابة رضوان الله عليهم ومعنى هذا أن فكرة جمع الشعر أو غيره لم تنشأ في الجاهلية، إنما صوغتها الكتابة حينذاك -كما ذكرنا- أو لاعتمادهم على الرواية والمشافهة في حفظ أشعارهم!

١- الحياة العربية د/ الحوفي ص ٢٠٩ - ٢١١.

- وبعد: فأولى القصائد المذكورة هي لامرئ القيس بن حجر، ومطلعها:
- قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل يسقط اللوى بين الثخول فحومل
- وأما الثانية فهي: لطرفة بن العبد، ومطلعها:
- لخولة أطلال بئرقة ثمديد ظللت بها أبكى وأبكى إلى الغد
- وأما الثالثة فهي: لزهير بن أبي سلمى، ومطلعها:
- أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانية الدراج فالمستلهم
- وأما الرابعة فهي: لعنترة بن شداد، ومطلعها:
- هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
- وأما الخامسة فهي: لعمر بن كلثوم، ومطلعها:
- ألا هبي بصحنك فأصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا^(١)
- وأما السادسة فهي: للحارث بن جلة الشكري من بني يشكر من بكر ابن وائل وكان أبرصاً. فيقال: إنه ارتجلها من وراء السيف للبرص!
- اذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يعمل منه الشواء
- وأما السابعة فهي: للبيد بن ربيعة ومطلعها:
- عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبّد عولها فرجامها^(٢)
- ٢- المفضليات: وهي للمفضل الضبي، وتعدّ من أوثق مصادر الشعر الجاهلي، لأن صاحبها من الرواة الثقات، على أنها تصور جوانب
- ١- الأندرين: قرية بالشام كثيرة الخمر كانت بجنوب حلب قال ياقوت: وهي الآن خراب.
- ٢- الغول والرجام: جيلان.

الحياة الجاهلية بأيامها وأحداثها، وعلاقة القبائل بعضها ببعض، ويملوك الحيرة والغساسنة.

وهي في بعض النسخ ١٢٦ قصيدة، وفي بعضها ١٢٨ قصيدة، وفي بعضها ١٣٠ قصيدة، لسبع وستين شاعراً، منهم ٤٧ جاهلياً.

وقد شرحها ابن الأنباري وأثبت في مقدمة الشرح سندها الذي رفعه إلى ابن الأعرابي تلميذ المفضل. ثم نشرتها دار المعارف بتعليق عبدالسلام هارون وأحمد شاكر.

٣- الأصمعيات: للأصمعي، وهي كالمفضليات في الثقة بها. وتبلغ قصائدها ٩٢ قصيدة لواحد وسبعين شاعراً، منهم ٤٠ جاهلياً.

وقد نشرها "الورد" عام ١٩٠٢م عن نسخة في برلين. ثم عبدالسلام هارون وأحمد شاكر عن نسخة للشنقيطي عن نسخة قديمة.

٤- جمهرة أشعار العرب: لأبي محمد القرشي، وهو ممن عاشوا في أواخر القرن الثالث أو أوائل الرابع. وبها ٤٩ قصيدة موزعة على سبعة أقسام: المعلقات والمجمهرات، والمنتقيات، والمذهبات، والمراثي، والمشوبات، والملحقات.

ولا تصل هذه المجموعة على كل حال إلى مستوى المفضليات والأصمعيات من حيث الثقة، لضعف سندها. وقد طبعت مراراً في القاهرة وببيروت.

- ٥- مختارات ابن الشجرى: المتوفى سنة ٥٤٢هـ، وهى كالجمهرة فى ضعف سندها، وتضم مختارات من الشعر الجاهلى والإسلامى. وقد طبعت بالقاهرة.
- ٦- ديوان الحماسة لأبى تمام: وهو مقطوعات جاهلية وإسلامية وعباسية، موزعة على عشرة أبواب، وأكبرها باب الحماسة. وقد شرحه المرزوقى الذى قال: إن أبا تمام أصلح الشعر الذى رواه، وغير بعض الألفاظ كما شرحه التبريزى، وكل من الشرحين مطبوع.
- وهناك كذلك: حماسة البحتري، وحماسة ابن الشجرى التى طبعت فى حيدر آباد، وغيرهما من دواوين الحماسة.
- ٧- دواوين الشعراء الستة الجاهليين: وقد جمعها الأصمعى من شعر امرئ القيس والنايفة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة. وقد شرحهما الشنتمرى، ونشرها آلورد.
- وقد طبع ديوان امرئ القيس مستقلاً عدة طبعات، أهمها طبعة دار المعارف كما نشرت دار الكتب ديوان زهير، بشرح ثعلب. كما طبعت دواوين النايفة وطرفة ولييد وعروة بن الورد وحاتم وعلقمة والشنفرى وأوس بن حجر. ونشرت كذلك أشعار الهذليين، وديوان أبى ذؤيب الهذلى.
- ٨- شرح النقائض: وهو لأبى عبيدة، وقد جمع فيه كثيراً من الشعر الذى قيل فى أيام العرب.

ومن الكتب التي تناولت أيام العرب كذلك: الكامل لابن الأثير،
والعقد الفريد لابن عبدويه.

٩- طبقات الشعراء: وهو لابن سلام، وقد درس فيه الشعر الجاهلي،
وحقق نسبه، وبين الصحيح منه والموضوع.

١٠- كتب أخرى: وهناك غير ما تقدم: الشعر والشعراء لابن قتيبة، والبيان
والتبیین والحيوان للمجاهد، والكامل للمبرد، وأمالى اليزيدي، وأمالى
القالى ومجالس ثعلب، والمؤتلف والمختلف للأمدى، وكتابها
الموشح ومعجم الشعراء للمرزبانى، ثم خزانة الأدب لليغدادى المتوفى
سنة ١٠٩٣هـ.

ويعد كتاب (الأغانى) للأصبهاني من أكبر مصادر الشعر الجاهلي،
فقد ترجم فيه للشعراء من القرن السادس الميلادى إلى القرن التاسع
للميلاد. وسجل كثيراً من الشعر الذى فقد، واهتم بالأسانيد التى ترجع
إلى مصادرها الأولى من الرواة الثقات، وكان ذا ذوق وبصر بالشعر، مما
أعانه على الدقة والتحقيق والتثبيت^(١).

١- راجع (مصادر الشعر الجاهلي) لناصر الدين الأسد، و(العصر الجاهلي) لشوقي
ضيف.

الفصل السادس

الشعر الجاهلي

بين

الوضع والانتحال

كان من أسباب الشك فيما ورد من أدب جاهلي هو ما وضعه بعض الرواة من عند أنفسهم أو تحريفهم لبعض النصوص أو التشكيك في نسبتها أو غير ذلك مما صنعه حماد الراوية^(١) وخلف الأحمر ولكن كان هناك كذلك رواة أمناء تعقبوا أولئك المحرفين، ووقفوا لهم بالمرصاد، يكشفون زيفهم، ويصححون أخطاءهم، حتى خلصوا لنا قدراً كبيراً من الشعر الجاهلي الصحيح الذي يمكن أن نثق به، ونطمئن إلى صحته، ومن هؤلاء أبو عمر بن العلاء، والمفضل الضبي، والأصمعي ثم ابن سلام صاحب كتاب (طبقات فحول الشعراء).

ومع ذلك فقد استغل كثير من المستشرقين ومن تابعهم من النقاد العرب المحدثين، موضوع الرواة الوضاعين، فأخذوا يشكون في الشعر الجاهلي كله، ويشككون فيه، حتى انتهى الشك بكثير منهم إلى رفضه كله وقادهم إلى تعميم الحكم عليه كله بالوضع والانتحال.

وقبل أن نفصل الأمر في هذه القضية، يحسن أن نشير إلى الأسباب التي دعت إلى تحريف الشعر الجاهلي والانتحال فيه.

فقد ردها ابن سلام في كتابه إلى: عامل القبائل، وعامل الرواة الوضاعين، ثم زاد الدكتور طه حسين على هذين العاملين: عامل الدين والشعوبية:

١- راجع (مصادر الشعر الجاهلي) لناصر الدين الأسد، و(الأدب الجاهلي) لطفه حسين، و(تاريخ آداب العرب) للرافعي، و(العصر الجاهلي) لشوقي ضيف، و(طبقات فحول الشعراء) لابن سلام.

١- فأما عامل القبائل، أو عامل السياسة كما سماه طه حسين، فيرجع إلى عصبية القبائل التي أرادت أن تتزيد في مناقبها، فزادت على أشعارها التي تصوّر هذه المناقب، وقد أشار ابن سلام إلى ماأضافته قريش من هذا الشعر، وماوضعت على لسان حسان، كمايشير إلى أن داود بن حاتم بن نويرة زاد على شعر أبيه، حين استنشده أبويعبيدة الذي اكتشف زيفه بقطنته وذوقه وبصره بشعر الشعراء^(١). كما شك في قصيدة أبي طالب التي روتها قريش في مدح الرسول ﷺ^(٢).

٢- وأما الرواة المنتحلون فهم عند ابن سلام طائفتان: طائفة تحسن صوغ الشعر فهي تضيف ما تنظمه إلى الجاهليين، مثل (حماد وخلف)، "وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ماوضعوا ولا ماوضع المولدون^(٣)" وطائفة لا تحسن ذلك، ولا تستطيع أن تحتذى شعر الجاهليين، ولكنها تجمع كل غثاء وزيف، مثل رواية الأخبار والسير والقصص، كابن اسحق صاحب السيرة النبوية. وقد وصف ابن سلام صنيع هؤلاء بأنه شعر غث "لا خير فيه، ولا حجة في عربيته، ولا أدب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا

١- طبقات الشعراء: ٤٠.

٢- المصدر نفسه: ٢٤.

٣- المصدر نفسه: ٤٠.

هجاء مقذع إلخ^(١).

وربما كان الدافع لهؤلاء الرواة على الوضع، هو الاستجابة لرغبة القبائل في ذلك، أو حرصهم على أن يظهروا في الناس بمعرفة مالا يعرفه غيرهم، بدافع المنافسة.

وقد أشار ابن سلام إلى هذين العاملين بقوله: «لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقلَّ بعض العشائر شعر شعرائهم، وماذهب من ذكر وقائهم، وكان قوم قَلَّتْ وقائهم وأشعارهم، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة فزادوا في الأشعار^(٢)».

٣- وأما عامل الدين فيتمثل في الأشعار التي نظمت في الجاهلية إرهاباً ببعثة الرسول ﷺ، وفيما أضيف إلى الجن والأمم القديمة البائدة، ونحو ذلك مما رواه أمثال ابن اسحق وغيره. وابن الصمت وغيرهما.

٤- وأما عامل الشعوبية فقد دفع بالأعاجم إلى أن تضع على ألسنة الجاهليين أشعاراً تثبت مثاليهم ومناقب الأعاجم، كما دفع العرب إلى وضع عكس ذلك، ومن هذا المنطلق أخذ طه حسين يشكك فيما أضافه الجاحظ إلى الجاهليين في كتابه (الحيوان) مما يدل على اتساع معرفة العرب في هذا العلم.



١- طبقات الشعراء ص: ٥.

٢- المصدر السابق: ٣٩ وما بعدها.

هذه هي أسباب الانتحال عند ابن سلام وغيره من النقاد. ومعنى ذلك أن في الشعر الجاهلي ما هو منتحل، وفيه كذلك ما هو موثوق به. وقد تعقب الرواة الثقات حقيقة هذا المنتحل وكشفوا زيفه، ورفضوه، كما استطاعوا تمييز الموثوق به، والمجتمع عليه، وقبلوه. وقد تبلور ذلك كله آخر الأمر فيما أوضحه النقاد، كابن سلام في كتابه (طبقات فحول الشعراء).

غير أن جانب الانتحال قد أغرى كثيراً من المستشرقين ومن تابعهم من نقاد العرب المحدثين بالشك في الشعر الجاهلي كله أو معظمه، حيث وجدوا في الرواة الوضاعين منفذاً إلى الطعن فيه، وعدم الثقة به، متجاهلين الجانب الحقيقي الآخر لصورة المشكلة، ذلك الجانب الذي وقف فيه الثقات من الرواة والنقاد على أرض الحقيقة الصلبة. فهناك (آلورد) الذي نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين، ثم (بروكلمان)، ثم (مرجليوث) و(بلاشير) وغيرهم من المستشرقين. وسنكتفي هنا بعرض أهم هذه الآراء ومناقشتها.



أما (مرجليوث) فقد كان أكثر من أثار هذه القضية، ومن أهم ماكتب في ذلك مقاله في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية سنة

١٩٥٢(١) وهذه خلاصة آرائه :

١- ينفي أن يكون الشعر الجاهلي قد انتقل عن طريق الرواية، وأن تكون

هذه الرواية هي التي حفظته حتى انتهى إليها .

قد ثبت أن سلسلة روايته لم تنقطع حتى عصر التدوين على أن المستشرق (لايل) في مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص يؤكد أن رواية هذا الشعر استمرت حية نشطة من العصر الجاهلي إلى أن دُون نهائياً في العصر العباسي، ويقول: إن من يرجع إلى المعلقات مثلاً يجد لكل منها شخصيتها الواضحة التي تنفرد بها، والتي تثبت أنها لصاحبها.

٢- يتخذ من الرواة المتهمين ومن طعن الرواة بعضهم في بعض ذريعة لما زعمه من أن الوضع في هذا الشعر كان مستمراً ونرى كثيراً من اعتراضات الباحثين عليه فمثلاً:

(أ) يرد عليه (لايل) في مقدمته للمفضليات، برأى وسنعرض له في مكانه ص ١١١.

(ب) كما يرد عليه أيضاً في مقدمة ديوان عبيد بن الأبرص، بأن تقاليد شعر القرن الأول الهجري تلزم وجود الشعر الجاهلي الذي يشترك معها في نفس التقاليد.

١- راجع هذا المقال في كتاب (مصادر الشعر الجاهلي) لناصر الأسد ٣٥٣ ومابعدها.

ج) وبأن في الشعر الجاهلي الذي وصلنا ألفاظاً غريبة لم تكن تستخدم في عصر هؤلاء الرواة الذين دُونوه.

هـ) ويضيف الدكتور شوقي ضيف إلى هذه الردود أن في الشعر الجاهلي صوراً من الأساليب والتراكيب الخارجة على الصورة النحوية الطبيعية، مما يدل على قدمها، وأن فيه كذلك صورة للتهتك الخلقي لا تقوم إلا في نفس وثني، على نحو ما يلقانا في معلقة امرئ القيس^(١).

٣- ويقول: إن الشعر الجاهلي لا يمثل الوثنية ولا النصرانية، وإنما هو مصبوغ بصبغة إسلامية.

وفي كتاب الأصنام لابن الكلبي، من الشعر الجاهلي المصور لذلك ما ينقض زعمه، ولا ينافي ذلك أن ماورد منه مصبوغاً بصبغة إسلامية موضوع منتحل.

٤- ويقول كذلك: إن هذا الشعر أولاً: لا يمثل لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية، وثانياً: لا يمثل الاختلاف بين لغة العدنانيين في الشمال ولغة الحميريين في الجنوب، وإنما يمثل لغة واحدة هي لغة القرآن الكريم.

أما اللهجات: فقد توحدت وتركزت في لهجة قريش منذ أوائل العصر الجاهلي، إذ أن قريشاً بحكم مركزها الديني في مكة، ومكانها

١- العصر الجاهلي ص ١٦٨.

الاقتصادى فى الجزيرة العربية، وإشرافها على الأسواق التجارية والأدبية، كانت تحتل مكان السيادة، فسادت لهجتها تبعاً لذلك، ونظم بها جميع الشعراء متخليين عن لهجات قبائلهم. وأما أنه لا يمثل اللغة الحميرية فى الجنوب فلأنها ليست لغته، لأنها لغة الحميريين الذين لم يهاجروا إلى الشمال، أما السبئيون الذين هاجروا فإنهم اصطنعوا اللهجة القرشية ونظموا الشعر بها. ولهذا يقول أبو عمرو بن العلاء: *مالسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا* (١).

هـ- وأخيراً يقول مرجليوث: إن النقوش الأثرية لا تدل على وجود أى نشاط شعري فى الممالك الجاهلية المتحضرة كاليمن، فكيف يتاح هذا النشاط لبدو غير متحضرين؟ وقد رد عليه المستشرق (براونلس) بأن نظام الشعر لا يرتبط بالحضارة ولا بالثقافة، فهناك بدائيون لهم شعر كثير مثل الإسكيمو. والحق أن مرجليوث جانبه الصواب فى دعواه ولذلك هب كثير من المستشرقين يرُدُّون عليه مثل "براونلس"، "ولاييل" واحتج عليه الأخير فى مقدمته للمفضليات بأن من وضعوا هذا الشعر على فرض التسليم بذلك كانوا يحاكون نماذج سابقة وتقاليد أدبية موروثة قلَّدوها وحاكوها ونفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه إذ

١- طبقات الشعراء لابن سلام ص ١١.

لا يمكن أن يحاكوا شيئاً لم يبق منه ما يتيح لهم هذه المحاكاة وإذن فلا بد أن يكون هناك شعر جاهلي عرفه الإسلاميون وحاكوه، وحقاً دخله انتحال أمثال حماد وخلف ولكن وراء انتحالهم شعر صحيح ينبغي أن نهتدي في معرفته بالرواية الوثيقة وصفاته الشخصية والأسلوبية المميزة^(١).



وأما (بلاشير) فيتخلص طعنه على الشعر الجاهلي فيما يلي^(٢):
١- يزعم أن رواة البصرة ونحاتها جردوا لغة الشعر الجاهلي الذي وصلنا من آثار اللهجات المختلفة، وأخضعوها لقواعد النحو البصرية. فاللغة التي نراها في هذا الشعر موحدة لا تمثل اللهجات التي كانت سائدة في العصر الجاهلي.
والرد على ذلك ما أشرنا إليه من قبل، من سيادة اللهجة القرشية واتجاه الشعراء إلى نظم شعرهم بها.
لقد كان لقريش نفوذ كبير بسبب مركزها الروحي والمادي، فقد كانت تقوم على حراسة الكعبة، وكانت قوافلها تجوب كل أنحاء الجزيرة، وكانت كل القبائل تجتمع عليها في الأعياد الدينية والأسواق التجارية والأدبية.

١- العصر الجاهلي لشوقي ضيف: ١٦٧ - ١٦٨.

٢- راجع كتاب (تاريخ الأدب العربي) لبلاشير.

وإذن فقد كانت محط الرحال، ومناط الأنظار، ومهوى الأفتدة. وهي في كل ذلك تعمل على صقل لهجتها، وتهذيب حواشيها، باختيار ماعذب في اللسان، وتخف على السمع، من لهجات هذه القبائل جميعها. وبذلك كله تهيأ للهجتها أن تسود اللهجات، وأن تصبح هي اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم.

يقول أبو نصر الفارابي: "كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانةً عما في النفس" (١).

ويروى أحمد بن فارس عن اسماعيل بن عبيد الله قوله: "أجمع علماؤنا ... أن قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة، وذلك أن الله اصطفاهم، واختار منهم بنى الرحمة، فجعلهم قُطَّان (٢) حرمه، وجيران بيته، فكان وفود العرب يقدون إلى مكة للحج، يتحاكمون إليهم ... وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغتها إذا أتتهم الوفود تخيروا من كلامهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم ... فصاروا بذلك أفصح العرب ... (٣) ...

وينقل صاحب الأغاني ماقاله الرواة من أن العرب (كانت تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما ردوه كان

١- المزمع للسيوطي: ٢١١/١.

٢- أي سكان حرمه.

٣- الصاحبي في فقه اللغة، و(المصر الجاهلي) لشرقي صيف: ١٣٢ وما بعدها.

مردوداً (١٧).

وأما ما يزعمه (بلاشير) من أن الرواة عدّلوا في أصول الشعر الجاهلي، وأخضعوها لقواعد النحو البصرية فينقضه ما امتلأت به كتب النحاة من بصريين وكوفيين من الشواذ النحوية التي أبقرها على حالها دون تعديل.

٢- ويعتقد (بلاشير) أن الرواة أدخلوا في الشعر الجاهلي إصلاحات ذات صبغة جمالية، تقوم على رصانة الألفاظ وجزالتها! ولو صح اعتقاده لكانت إصلاحاتهم على أساس مقاييس جمالية عرفوها للشعر الجاهلي، تنهض على الجزالة والرصانة، وهذا يقوده إلى الاعتراف بوجود نماذج جاهلية صحيحة يقيسون عليها إصلاحهم. ومما يدفع هذا الاعتقاد كذلك أن كثيراً من القصائد الجاهلية أثبتتها الرواة على حالها دون إصلاح أو تعديل، مع أنها مضطربة الأوزان، مختلفة العروض، مثل قصيدة عبيد بن الأبرص.

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب
فبعضها من مخلع البسيط، والبعض الآخر مضطرب، لا يجرى على وزن معروف، ومثل قصيدة امرئ القيس:

عينك دمعهما سجال كأن شأنهما أو شال
فالشر الأول من المخلع، والثاني مضطرب ... وهكذا ...

٣- ثم ينتهي (بلاشير) إلى القول بأن القصائد المقلدة اختلطت بالقصائد الأصلية: في الشعر الجاهلي، بحيث لا يمكن تمييز المقلد من الأصل. والرد على ذلك هو أن الرواة الثقات ميزوا لنا الأصول الصحيحة، وأجمعوا على توثيقها، كما سبق. وقد تأثر بعض الباحثين العرب بما كتبه المستشرقون فقد تأثر الدكتور (طه حسين) بمارجليوس، كما تأثر كثيراً بأراء غيره من المستشرقين وتابعهم فيها، حين درس هذه القضية في كتابه (الشعر الجاهلي) الذي أثار ضجة عنيفة في الأوساط الدينية والأدبية، حيث تصدى للرد عليه كثيرون من العلماء والأدباء فلم يلبث أن حذف منه ما حذف، ثم أعاد نشره باسم (في الأدب الجاهلي) (١). وفي هذا الكتاب:

"عرض لمدرسة زهير وأبان عن خصائص هذه المدرسة وماتماز به وكشف عن طريقها في تناول الأشياء وعرضها ووضع يده على طائفة كبرى من هذه المميزات التي شارك فيها زهير وأوس بن حجر من قبله والحطيئة وكعب من بعده وجميل بعد الحطيئة ووجد في هذه السلسلة مذهباً فنياً متكاملًا يأخذ به جيل عن جيل ويرث فيه جيل من جيل هذا النهج الفني في تصوير الأشياء وفي إفادة كل العناصر المادية حول التشبيه وفي الاهتمام باللفظ والاحتفال به وفي رعاية الأسلوب

١- من الردود على هذا الكتاب: (الشهاب الراصد) للأستاذ لطفى جمعه، و(النقد التحليلي) للفرأوى، (نقض مطاعن في القرآن) للأستاذ محمد عرفة، (نقض كتاب الأدب الجاهلي) للخضر حسين.

وتنقيحه والمرور عليه حيناً بعد حين حتى يأتي أحسن ما تكون
الأساليب استواء وصفاء ونقاء^٥ وقد رأيت الرواة يحدثننا بأن زهير
كان يصنع شعره ويتكلفه وينفق الحول أحياناً قبل أن يظهر القصيدة
من شعره. وأن الحطيئة كان عبداً من عبيد الشعر يتكلفه ويشقى في
صنعه. وأن كعباً والحطيئة كليهما قد ذكر صناعة الشعر وتشقيقه
والعناء فيه. وإذن فإذا كان هذا كله حقاً فإننا بإزاء مدرسة شعرية معينة
أستاذها الأول أوس ابن حجر وأستاذها الثاني زهير وأستاذها الثالث
الحطيئة الذي أخذ عنه في الإسلام جميل ومن جميل أخذ كثير
فلا عُرِضَ قبل كل شيء عن الخصائص التي تكون شخصية هؤلاء
الشعراء ولا التمس ما يمكن أن يكون بينهم جميعاً من التشابه فإذا
ظفرت بطائفة من الوجوه الفنية يشتركون فيها جميعاً على اختلاف
شخصياتهم كان من المرجح أني قد ظفرت بمدرسة من مدارس الشعر
الجاهلي وبالقواعد الفنية التي كانت تقوم عليها المدرسة^٦.

"ويبدأ الدكتور طه فينفي أن يكون قد استنيط هذا من عنده استبطاً أو
تكلفة وإنما هو شيء تحدث به الأقدمون تصريحاً مرة وتلميحاً مرة
أخرى أشاروا أن زهيراً كان راوية أوس أعنى أستاذه وأن الحطيئة كان
راوية زهير ويأخذ الدكتور طريقه فيدرس شعر أوس ويكشف عن هذه
البدأة في معانيه وهذه المتانة في ألفاظه وهذه الرصانة في تراكيبه
وهذا الغريب الذي يملأ شعره حتى يكاد يغطيه فلا يبين إلا من وراء

ضباب ولا يتكشف إلا بعد جهد إما الغرابة اللفظ وإما البعد هذه المعاني عما أُلْفِت من ألوان الخيال وضروب التصور ولكنه لا يلقي -إلى هذا كله- كبير بال وإنما يقف الوقفة المستأنية الطويلة عند مذهبه الشعري في الوصف فيرى في أوس الشاعر المادى الحس الذى يبدو * كأنه يشعر بحسه، كأن يشعر بعينه وأذنيه ويديه أو قل كأن ملكة الخيال لم تودع منه حيث أودعت من الآخرين من وراء الحواس وإنما أودعت الحواس نفسها (١).

وقد انتهى الدكتور طه حسين من بحثه إلى رفض الكثرة المطلقة مما يسمى أدباً جاهلياً، فهي منتحلة بعد ظهور الإسلام، وإلى التسليم بصحة القليل جداً من هذا الأدب، وهو "لا يمثل شيئاً، ولا يدل على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي (٢)". ويمكن أن نجمل هنا خلاصة آرائه في الشعر الجاهلي والرد عليها:

أولاً: الشعر الجاهلي لا يمثل حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية بينما نجد القرآن الكريم يمثلها تمثيلاً قوياً.

١- في الأدب الجاهلي ص ٢٨٦، وأصول البحث الأدبي ومناهجه د/ السيد تقي الدين ص ١١٥ - ١١٦.
٢- في الأدب الجاهلي ط ١ ص ٦٤.

ففى الناحية الدينية ترى القرآن يجادل اليهود والنصارى والمجوس ويعرض لكل المعتقدات الجاهلية، وليس فى الشعر الجاهلى صدق لذلك كله.

والرد على ذلك:

١- أن القرآن كتاب دينى يدعو إلى دين جديد وهو الإسلام، فمن الطبيعى أن يعرض للديانات والمعتقدات ويناقشها، وليست هذه مهمة الشعر^(١).

٢- على أن كتاب (الأصنام) لابن الكلبي حافل بالشعر الذى يصور هذه المعتقدات.

٣- ويرى "جورجى زيدان" أن المنظومات الدينية قد ضاعت لاشتغال العرب عنها بالحماسة والفخر بسبب الحروب، فلما جاء الإسلام أغضى الرواة عنها، لأنها وثنية ...

٤- ويذكر المستشرق "أدوار براونلس" أن قلّة الشعر الدينى ترجع إلى أن علماء المسلمين يرفضون من الشعر ما خالف الإسلام^(٢).

فإذا كان الشعر الدينى قد بدأ قليلاً، فذلك راجع لتّحرج الرواة أو لعدم تغلغل الدين فى نفوس الشعراء الجاهليين.

١- (العصر الجاهلى) لشوقي ضيف: ١٧١.
٢- مجلة الأدبيات الشرقية عام ١٩٢٦.

وأما عدم تصوير الشعر للحياة العقلية عند الجاهليين، فأية حياة عقلية لهؤلاء البدو يمكن أن يصورها الشعر؟ إنه صَوَّر حياتهم العقلية الفطرية التي لم تصل إلى مستوى فكري منظم، وهي ليست حياة راقية ولا معقدة. ومن الناحية السياسية يرى طه حسين أن شعر الجاهليين لا يوضح اتصالهم بمن كان حولهم من الأمم الأخرى كالروم والفرس، بينما يوضح القرآن ذلك مثلاً في سورة الروم^(١).

والحق أن شعراءهم اتصلوا بالفلسفة أتباع الروم، والمناذرة أتباع الفرس، ومدحوهم وهجوهم، كما نرى ذلك عند شعراء بكر لما نشبت الحرب بينهما وبين الفرس.

وهذا عمرو بن كلثوم يقول: (وكأيس قد شربت ببعلبك ...)

وامرؤ القيس يصف رحلته إلى القسطنطينية، فيقول^(٢):

ولو شاء كان الغزو من أرض حمير ولكنه عمداً إلى الروم أنفرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لا حقان بقيصرا
ويقول الأعشى^(٣):

وقد طفت للمال آفاقه ثمان فحمص فأوريشلم
أتيت النجاشي في داره وأرض النبط وأرض العجم
فنجران فالسرو من حمير فأى مراغ له لم أزم

١- راجع الآيات (٤-١).

٢- ديوانه ص ٩٥.

٣- ديوانه ١٧١/ - ١٧٢.

وشعر النابغة الذبياني يمثل اتصاله بملوك الحيرة، كما أن شعر عدى بن زيد يمثل هذه الصلة بين العرب والفرس، واتصال عدى بديوان كسرى معروف، إن عدى بن يزيد هو الذى وقف وراء النعمان حتى ولّاه ملك الحيرة بعد أبيه^(١).

وأما الناحية الاقتصادية: فإنه يرى أن القرآن يتحدث عن الأغنياء المستأثرين بالثروة، والفقراء المعدمين، كما يتحدث عن البخلاء ويذم البخل، وليس فى شعرهم صدى للنظام الطبقي، ولا تصويراً للبخل، وإنما فيه أن العرب كلهم أجواد كرام.

والحق: أن شعراءهم كما أكثروا من ذكر الكرم ومدحه، أكثروا كذلك من ذكر البخل وذمه. وشعر الصعاليك يصور الصراع القوى بين الفقر والثراء ويشور على ذلك النظام الاقتصادى الجائر.

فالواقع أن الشعر الجاهلى قد مثل حياة الجاهليين، ورسم ألوان معيشتهم وصوّر عاداتهم، وتحدث عن أديانهم، ووصف بيئتهم بما أظلمها من سماء وكواكب، وما أقلته من جبال وكتبان، ومادّب على أرضها من حيوان، وما نطلق فى أجوائها من طير، كما سجل أيامهم وأخبارهم وتاريخهم.

يقول نيكلسون: * إن الأدب الجاهلى المنظوم منه والمنثور يمكننا من تصوير الأيام الجاهلية تصويراً اقرب ما يكون إلى الدقة*.

١- راجع الاعتذار فى الأدب العربى د. محمد شريف ص ٣٥.

ويقول «ثوريكة» الألماني في كتابه عن عنصرة: «يمكن تعريف الشعر الجاهلي بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها».

ويقول «تولدكه» المستشرق الهولندي: «إن عادات العرب وأحوالهم معلومة لنا بالدقة نقلاً عن أشعارهم».

ثانياً: الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية ولهجاتها المختلفة. فقد كانت هناك لغتان تختلف كل منهما عن الأخرى: لغة الحميريين الجنوبية ولغة العدنانيين الشمالية، وقد روى كثير من شعر الجنوبيين بلغة الشماليين، مع ما ثبت من اختلاف اللغتين.

وبهذا يرى الدكتور طه طريقاً من ذلك يسوّغ له التشكيك في الشعر الجاهلي حتى أنه شك في شعر امرئ القيس لأنه يعني وشعره قرشي اللغة. والحق أن ما يضاف إلى من كانوا في أقصى الجنوب من اليمن منتحل، أما من كانوا يجاورون الشماليين فقد تعرّبوا في الجاهلية مثل «مذحج» و«بلحارث بن كعب».

وأما السبيون من القحطانيين فقد نزحوا من الجنوب إلى الشمال قبل الإسلام بعد سيل العرم ومنهم اللخميون ملوك الحيرة، والغساسنة ملوك الشام، وغيرهم.

أما حمير فهي التي كانت بأرضها في ظفار وصنعاء وماجاورها، وهي التي قال فيها أبو عمرو بن العلاء: «مالسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم عربيتنا».

أما اللهجات الشمالية المختلفة التي لاحظ الدكتور طه أن الشعر الجاهلي لا يمثلها، حيث كان ينبغي أن تظهر فيه وجوه اختلافها. فقد ذكرنا من قبل أن لهجة قريش قد سادت هذه اللهجات، وأن الشعراء اتجهوا إليها في أشعارهم، وتحروها في لغتهم الأدبية.

ثالثاً: ويشكك الدكتور طه في شعر الشواهد التعليمية على ألفاظ القرآن والحديث والمذاهب الكلامية والنحوية، ويتخذ من ذلك وسيلة لانتحال الشعر الجاهلي.

وهذا الاتهام ينبغي ألا يتجاوز هذه الشواهد إلى الشعر الجاهلي عامة. فتلك أبيات فردية لا يقاس عليها.



وهكذا نرى من كل مامر بنا أن الشعر الجاهلي قد دخله كثير من التحريف والوضع، غير أن ذلك لا يحملنا على الشك فيه كله، أو رفضه، فإن النقاد القدماء والرواة الثقات قد أدركوا هذا الوضع، وكشفوا عن الزيف، وبذلوا من الجهد والتحري ما كشف لنا عن الصورة الصحيحة للشعر الجاهلي، بما نقلوه إلينا في صدق وأمانة، من قصائده التي لا تحتتمل الشك أو الرفض، والتي دونتها المصادر الصحيحة التي أشرنا إليها من قبل.



الفصل السابع

أغراض الشعر الجاهلي

تمهيد:

عاشت العرب حياة بدوية طييمية تحيط بهم الصحراء الواسعة، وتكنفهم الرمال الشاسعة وتظلمهم السماء الصافية، ويجنهم الليل الساجي، وتحرقهم الشمس، ويخنو عليهم القمر، وتؤنسهم النجوم، وتتجاوب حولهم أصوات الوحوش، وتحيطهم الرياح العاتية حتى إذا أفلتت سحاباً تتبعوا مواقعها!

فالجذب شامل، والإبل عماد حياتهم منها يلبسون ويأكلون، وعليها يحملون، والخيول معقل فرسانهم، يحيون حياة طليقة من كل قيد، الفطرة قانونهم، والتنازع على البقاء سبيلهم، القبيلة هي الدرع الحصين، بها يلوذون وعنها يدافعون ومن هذه البيئة نبتت أخلاقهم ونشأت عاداتهم ومنها كانت أغراض شعرهم، لهذا تنقل شعرهم بين النسيب والفخر والهجاء والمدح والوصف والثناء، كما حوى طرفاً من الحكمة والاعتذار. ويرى بعض الأدباء إدماج بعضها في بعض ويرى بعضهم أن الأغراض جميعها تنتهي إلى المدح والهجاء^(١).



فالمدح: وهو الثناء على ذي شأن بما يستحسن من الأخلاق النفيسة كرجاحة العقل والعفة والعدل والشجاعة، وأنها صفات عريقة في الممدوح أو في قومه، وقد شاع المدح عندما ابتدل الشعر واتخذ

١- راجع العمدة لابن رشيق ج ١/ ٧٧، ٧٨.

الشعراء مهنة ومن أوائل مداحي العرب زهير والنابغة والأعشى.

فمن شعر المدح قول زهير يمدح خارجة بن سنان والحارث بن عوف
في معلقته التي أشرنا إليها وفيها يقول:

سعى ساعياً غَيِظَ بن مرة بعدما تَبَزَّلَ ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجالاً بَنَوْه من قريش وجُرحهم
يمينا لنعم السيدان وَجِدْتُمَا على كل حالٍ من سحيلٍ ومُبرمٍ^(١)
تداركتما عيساً وذبيان بعدما تَفَانُوا ودَقُوا بينهم عطر منشمٍ^(٢)
وقد قلتما: إن ندرك السلم واسعاً بمالٍ ومعروفٍ من القول نَسَلِمَ
فأصبحتما منها على خير موطنٍ بعيدين فيها من عقوقٍ ومأثمٍ
عظيمين في عليا معدَّ هُديتما ومن يستيح كنزاً من المجد يَعْظُمُ
والأبيات تشيد بموقف خارجة والحارث اللذين سعيا بدور الصلح
بين قبيلتي عيس وذبيان في حرب داحس والغبراء بعدما شقق الصلح
بالدم - كما تحمّل الرجلان ديات القتلى الذين سقطوا في المعارك
الضارية التي دارت بين القبيلتين، تلك الديات التي بلغت ثلاثة آلاف
بغير، وهو يقسم بالكعبة المشرفة على فضل هذين الرجلين وعلى

١- في شرح التبريزي: الساعيان هما: هرم بن سنان والحارث بن عوف، والسحيل
في الأصل: غيظ غير مبرم والمبرم الغيظ المفتول والمراد هنا أنها غير
عشيرتهما في كل أمر شديد أو لين محكم أو غير محكم.
٢- منشم: اسم امرأة من خزاعة كانت تبيع العطر بمكة فإذا حاربوا اشتروا منها
كافوراً لموتاهم فتشاموا بها.

أحقيتهما بالثناء والإطراء، وكان الصدق والإخلاص وعدم التكلف من أسرار جمال الأبيات وهو يستقى خياله من الواقع والطبيعة فيقسم بالكعبة ويستعير للشدة واللين الحبل المفتول وغير المفتول، ويصور التشاؤم يعطر منشم وهكذا إلى أن يرفعهما إلى علياء معد كما قال النابغة:

يا دار ميةً بالعلياء فالسند أقوَتْ وطال عليها سالفُ الأبد
ولانشك في صدق عاطفته وهو يشيد بمكارم الأخلاق وهو القائل:
وإن أشعرَ بيت أنتَ قائلُهُ بيتُ يقال: إذا أنشدته صدقاً
والرثاء: وهو تعدد لمناقب الميت وإظهار التفجع والتلف عليه
واستعظام المصيبة فيه وهو نوع من المدح بيد أنه للأموات وغالباً
ما يتعلق بأفراد وقد يشتمل على الحكمة والموعظة.

ولعل أروع قصائد الرثاء في العصر الجاهلي رثاء الخنساء أختها
صخر بن عمرو وكان شريفاً في بني سليم وقد رثته بقصائد كثيرة حتى
اشتهرت برثاء أخيها، ومن ذلك قولها (١):

قدَى بعينك أم بالعين عَوار؟ أم ذرفت أن خلّت من أهلها الدار (٢)
كأن عيني لذكراه إذا خَطرتُ فيض يسيلُ على الخدين مدرار (٣)

١- الخنساء هي: تماضر بنت عمرو الشريد لها منزلة رفيعة في الشعر أسلمت مع قومها وماتت سنة ٤٥ هـ (ديوان الخنساء ص ٤٩).

٢- العوار: الرمد. ذرفت: قطرت قطراً متتابعاً (سالت) والبيت كناية عن الحسرة.

٣- المدرار: الكثير.

فالعَيْنُ تَبْكِي عَلَى صَخْرٍ وَحَقَّ لَهَا وَدَوْنَهُ مِنْ جَدِيدِ الْأَرْضِ أَسْتَارُ (١)
تَبْكِي خُنَاسٌ وَمَاتَنَفَكَ مَاعَمَرَتْ لَهَا عَلَيْهِ أَنْيْنٌ وَهِيَ مَفْتَارُ (٢)
وإن صَخْرًا لَمَوْلَانَا وَسَيِّدُنَا وَإِنْ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لِنَحَارُ
وإن صَخْرًا لِنَأْتِمِ الْهَدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ (٣)
وفِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى تَصِفُهُ بِقَوْلِهَا:

طَوِيلُ النِّجَادِ رَفِيعُ الْعِمَادِ كَثِيرُ الرَّمَادِ إِذَا مَا شَتَا (٤)
وَلَمْ تَزَلِ الْخُنَاسُ تَبْكِي أَخَاهَا حَتَّى مَاتَتْ.
وَمِنْ الرِّثَاءِ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ قَوْلُ لَبِيدِ بْنِ رِيعَةَ
يَرِثِي أَخَاهُ أَرِيدَ:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضَوْئُهُ يَحْوَرُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ (٥)
وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعٌ وَلَا يَدُّ يَوْمًا أَنْ تَرُدَّ الْوَدَائِعُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا عَامِلَانُ: فَعَامِلٌ يَتَّبِرُ مَا يَبْنِي وَآخَرُ رَافِعٌ (٦)
أَمَّا الْفَخْرُ وَالْحِمَاةُ عِنْدَ الْعَرَبِ: فَمَعْنَاهُ التَّمَدُّحُ بِخِصَالِ الشَّاعِرِ
نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ وَالتَّحَدُّثُ بِحَسَنِ بِلَانِهِمْ وَمَكَارِمِهِمْ وَكِرَمِ عَنَصَرِهِمْ وَرَفْعَةِ

١- الأستار: الأحجار. وجديد الأرض: كناية عن الموت المبكر.
٢- خُنَاس: الخنساء. مَاعَمَرَتْ: ماعاشت. المَفْتَارُ: المقصر. تعني أنها مهما بكت
على صخر فهي مقصرة عن إيفائه حقه.
٣- العلم: المراد به هنا الجبل.
٤- شَتَا بِالْمَكَانِ: أَقَامَ بِهِ شَتَا وَالْبَيْتُ كَنَايَةٌ عَنْ أَنَّهُ شَجَاعٌ، عَظِيمٌ فِي قَوْمِهِ، جَوَادٌ.
٥- يَحْوَرُ: يَرْجِعُ.
٦- يَتَّبِرُ: يَهْلِكُ وَيُهْدَمُ.

حسبهم وغير ذلك، وقد كان من أهم أغراض شعرهم وأكثرها انتشاراً، ولا نبعد إذا قلنا إن الحماسة أهم موضوع استنفد قصائدهم فقد سمرتهم الحروب وأمدتها شعراؤهم يوقود جزل من التغنى ببطولتهم وأنهم لا يرهيون الموت، فهم يترامون عليه تحت ظلال السيوف مدافعين عن شرف قبائلهم ويرتفع هذا الغناء في كل مكان.

ومن روائعهم في هذا الباب معلقة عمرو بن كلثوم وفيها يصيح بانتصارات قومه وأيامهم المشهورة ومنها قوله:

متى ننقل إلى قوم رَحَانَا يكونوا في اللقاء لها طحيناً
يكون ثفالها شرقى نجد ولُهوئها قضاةُ أجمعيناً (١)
نطاعن ما تراخى الناس عنا ونضرب بالسيوف إذا غشيناً
نشق بها رهوس القوم شقاً ونخليها الرقاب فتختلينا
كان جماجم الأبطال فيها وسوق بالأماعر يرتميناً (٢)
ورثنا المجد قد عَلِمَتْ معدُّ نطاعن دونه حتى يبيناً (٣)
ونحن إذا عماد الحي خَرَّتْ على الأحفاض نمنع من يليناً (٤)
نجد رهوسهم في غير وتر فما يدرون ماذا يتقوناً (٥)

- ١- الثفال: خربة توضع تحت الرمح لاستقبال ما يطعن واللهوة: القبض من الحب.
- ٢- الأماعر: الأراضي الصلبة، الوسوق: جمع وسق وهو الحمل.
- ٣- يمين: يتضح.
- ٤- العماد: جمع عمود، الأحفاض: متاع البيت والمراد رحلة الحي للحرب.
- ٥- الوتر: الثار ونجد: تقطع.

كأن سيوفنا فينا وفيهم مخاريق بأيدي لاعبين^(١)
كأن ثيابنا منا ومنهم خضين بأرجوان أو طلينا^(٢)
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً تخر له الجبابر ساجدين
وهكذا يظل في حماسة وصياح شديد طوال أبيات معلقته يشيد
بانتصارات قبيلته (تغلب) ويحذر كل من تسول له نفسه بقتالها،
فحياتهم سلسلة من الحروب ويمتد فخره إلى قبائل معدّ كلها، فالسيوف
في أيديهم وأيدي أعدائهم كأنها مخاريق بأيدي لاعبين وهم يقتلون فيهم
فثيابهم جميعاً ملطخة بالدماء، وفي هذا وصف لأعدائه بالشجاعة وهذا
من باب الإنصاف ولهذا فقصيدته من بين القصائد التي تسمى
(المنصفة).

والهجاء: تعدّد لمثالب المرء ولقبيلته ونفى المكارم والمحسن
عنهما، وقد دار الهجاء في الجاهلية حول كل ما يناقض المروءة وهي
معنى الفضائل، كالشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والتجدة وطلب
الثأر، ولا يكتفى الهجّاءون بذلك، بل يتعرضون لمخازي القبيلة في
حروبها وأيامها التي ولّت على أديارها منهزمة منكسة الأعلام، وامتدّ
الهجاء للقذف في الأعراض والظعن في الأنساب متعرضين للأمهات

١- المخاريق: المناديل تلف ويلعب بها لعبة كانت عندهم.

٢- الأرجوان: صبغ أحمر.

وهكذا كانت صور الهجاء في الجاهلية، ولهذا كان من أكثر الأغراض شيوفاً.

فقد كان بين الأوس والخزرج قديماً حروباً لا تنقطع وكانت قبيلة "مُزينة" مع الأوس في حربها وكانت قد أسرت "ثابتاً" والد حسان فهجاها بقوله (١):

جاءت مُزينة من عمقٍ لتنصرهم انجى مُزينة في أستاذك القُتل (٢)
فكل شيء سوى أن تذكروا شرفاً أو تبلغوا حسباً من شأنكم جَلَل (٣)
قومٌ مدانيس لا يمشى بعقوتهم جارٌ وليس لهم في موطن بَطَل (٤)
وقال في هجاء مُزينة أيضاً:

مُزينة لا يرى فيها خطيب ولا فُلج يُطاف به خصيب (٥)
ولا من يملأ الشيزى ويحمى إذا ما الكلب أحجره الضريب (٦)
رجالٌ تهلك الحسنات فيهم يرون التيس كالفرس النجيب (٧)
فهذا لون من الهجاء الموجه حيث جعلهم لخستهم ليسوا ذوى بصر
بالخير تهلك الحسنات فيهم وهو تعبير جميل عن معنى جميل إذ يستوى

١- ديوان حسان تحقيق دسيد حنفي ص ٢٩٦.
٢- عمق: واد بالطائف أو موضع ماء ببلاد مُزينة. والأستاذ: الأدبار. والقتل جمع قتل.

٣- جَلَل: مین، وهي من أسماء الأضداد.

٤- العقوة: ماحول الدار والمحلة. مدانيس: قنزون.

٥- الفلج: النهر الصغير، والسخي. والمراد به: الفائز القدح.

٦- الشيزى: نوع من القصاع. أحجره الضريب: الجاء الجليلد إلى جحره.

٧- ديوانه ص ٢٩٦ والبيت فيه إقراء.

عندهم التيس والفرس النجيب، فهو هجاء بلغ في حسن لفظه وجمال سبكه وشدة وقعته على المهجو ما يتوخاه الشعر الهجائي من غاية إلا أن به إقواء في البيت الأخير.

أما التغزل: أو التشبيب ويسمى النسيب أيضاً. فقد كان في مقدمة جل قصائد العرب حيث بدأ العرب القدامى أشعارهم بذكر النساء ومحاسنهن وشرح أحوالهن وكان له عندهم المقام الأول من بين أغراض الشعر حتى لو انقسم إليه غرض آخر قَدَّم النسيب عليه وافتتح به القصيد، لما فيه من لهو النفس وارتياح خاطر ولأن باعته الفذ هو الحب وهو السر في كل اجتماع إنساني والبدو أكثر الناس حباً لفراغهم، وكان الغزل عند العرب موزعاً بين ذكريات الشاعر لشبابه ووصفه للمرأة وبكاء الديار التي رحل عنها المحبوب، ونراهم يققون عند المرأة فيصفون جسدها ولا يكادون يتركون شيئاً فيها دون وصف له، وقد يتعرضون لبعض مغامراتهم معها وهي مغامرات تحوّل بها بعض الرواة إلى قصص غرامية على نحو ما قصوا عن حب المنخل الشكري للمتجردة زوج النعمان، وله قصيدة رائعة رواها الأصمعي ومنها قوله (١):

ولقد دخلتُ على الفتاة	خَدَرَ في اليوم المطير
الكاعبِ الحسنة تر	فُل في الدمقس وفي الحرير
فدفعْتُها فتدافعت	مشى القطة إلى الغدير

ولثمتها فتنفست كتنفس الطير البهير^(١)
فدنت وقالت يا مُدَّ خُلِّ مايجمك من حرور
ماشغ جسمي غير حبه لك فاهدني عني وسيري
وقد كان استهلال الشاعر الجاهلي قصيدته بالغزل تقليداً لازماً أياً كان
غرض القصيدة ولهم في ذلك نظر دون شك. وقد رأينا في معظم مطالع
المعلقات السبع، وللشاعر امرئ القيس باع طويل في باب الغزل. انظر
إليه وهو يستهل معلقته بقوله:

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل يسقط اللوى بين الدخول فحومل
ثم يقص علينا موقفه مع جماعة من العذارى بينهن عنيزة بنت عمه
ومحبوبته وكيف احتال للركوب معها بديح ناقتة لهن وكيف كان يدخل
رأسه في خدرها فيقول^(٢):

ويوم عقرت للعذارى مطيتي فيا عجباً من رخلها المتحمل
يظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهذاب الدمقس المفتل^(٣)
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مرجلي^(٤)

-
- ١- البهير: من البهر وهو مايعترى الإنسان والحيوان عند السعي الشديد من النهج وتتابع الأنفاس.
 - ٢- راجع القصة كاملة في شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ط دارالمعارف، ص ١٤، ١٥.
 - ٣- أي كأطراف الحرير.
 - ٤- مرجلي: من ترجل أي مشى على رجله.

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيرى يا امرأ القيس فائزلاً (١)
فقلت لها: سيرى وأرخى زمامه ولا تبعدينا من جناك المعلى (٢)
الوصف: وهو شرح حال الشيء وهيئته على ما هو عليه فى الواقع
لإحضاره فى ذهن السامع كأنه يراه أو يشعر به. وقد وصف العرب كل
شئ وقعت عليه أعينهم، وصفوا رحلاتهم فى الصحراء وما يعانونه من
المخاطر، وصفوا قَطْعهم للمفاوز البعيدة فوق إبلهم، وصفوا إبلهم
وشبهوها بكثير من التشبيهات، فتارة يشبهونها بالقصور وقوائمها
بالأعمدة وأخرى يشبهونها بالسفن وقوائمها بجذوع الطلح ويديها
بالصخر وغير ذلك كثير.

وقد أبدع امرؤ القيس فى وصف فرسه فى معلقته ومن ذلك قوله:

وقد أغتدى والطير فى وُكُنَاتِهَا بمنجرد قِيد الأوابد هيكلاً (٣)
مكبر مفرٍ مُقْبِل مدبرٍ معاً كجلمودٍ صخرٍ حطَّه السيلُ من عل (٤)
كَمَيَّتٍ يُزَلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَاذِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمَتَنَزَّلِ (٥)

١- الغبيط: الرجل والموكب.

٢- أرخى زمامه: أى تركبه يسير دون أن تشد زمامه والمعلل الذى علل بالطيب مرة بعد مرة.

٣- الوكنات: مكان أبيض أو البيت، المنجرد: الأجرد القصير الشعر الصانى، وقيد الأوابد: أى هو قيد للوحوش العظيمة.

٤- أراد بالبيت السرعة والمرونة وحطه: حثره من أعلى.

٥- شبه ملاسة ظهر الفرس لاكتناز اللحم عليه وامتلأه بالصفاء (الصحراء الملساء).

على العقب بجيش كأن اهتزأه إذا جاش فيه حميه على مرجل (١)
 مسح إذا ما السابحات على الونى أقرن الغبار بالكديد المركل (٢)
 له أبطلا طلي وساقا نعاما وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (٣)
 فقد صور سرعته تصويراً بديعاً فجعله قيداً لأوابد الوحش إذا انطلقت
 في الصحراء فإنها لا تستطيع إفلاتاً منه قيد يأخذ بأرجلها، وهو لشدة
 حركته وسرعته يخيل إليك كأنه يفر ويكر في الوقت نفسه وكأنه يقبل
 ويدبر في آن واحد، وكأنه جلمود صخر يهوى به السيل من ذروة جبل
 عال وهو يصب الجرى صبا ويسبق كل الخيل سبقاً لا يثير غباراً ولا نقعاً
 إنما يحرك بالعقب فيجيش كفلين القدر لا يننى ولا يفتر، وهو فرس
 ضامر كأنه طلي نافر فله خاصرته، النحيلتان وهو كنعام خفيفة فله
 ساقاها الضئيلتان، يهوى كالذئب ويقفز كالثعلب.

- ١- العقب: جرى بعد جرى أو أنك إذا حركته بعقبك بدلاً من الوسط جاش (أسرع) اهتزأه: صوت جريه إذا جاش كفلين المرجل.
 - ٢- مسح: يصب جريه صبا، والسابحات: اللواتي عدوهن سباحة والسباحة في الجرى أن تبسط يديها قدر المستطاع، على الونى: على الجهد والضعف، والكدير: الموضع الغليظ، والمركل: ما يركل بالأرجل.
 - ٣- الأبطل: ما بين آخر الضلوع إلى الورك ويسمى الكشح وشبهه بأبطل الطلي لأنه ليس بعريض وساقا نعاما: أي قصير الساقين صليتهما، ويستحب من الفرس قصر الساق لأنه أشد للرمى.
- والإرخاء: جرى ليس بالشديد والسرحان: الذئب، والتقريب: أن يرفع يديه معاً ويضعهما معاً، والتفل: ولد الثعلب، يقال هو يعدو الثعلبية إذا كان جيد التقريب.

المثل والحكمة: فالمثل تعبير موجز عن خلاصة تجربة إنسانية يشبه فيها المضرب بالمورد كقولهم: "الضيف ضيعت اللبن" ويضرب لمن يطلب حاجته بعد فوات الأوان. إذن فالمثل مرآة تترك أحوال الأمم وقد مضت وتقفك على أخلاقها وقد انقضت.

أما الحكمة: فهي قول رائع يتضمن حكماً سريعاً صحيحاً مسلماً به وقد تخللت الحكمة في القصائد الجاهلية فكانت ضروباً من المعاني التهذيبيّة ما يزال الشاعر يدلي بتجاربه في تضاعيف قصيدته ومن عرفوا بها علقمة بن عبدة وزهير بن أبي سلمى. فعلقمة يلخص لنا رأى الجاهلين في المرأة فيقول في يائيته(١):

فإن تسألوني بالنساء فأئني بصيرٌ بأدواء النساء طيبٌ
إذا شأب رأسُ العرمِ أو قلّ ماله فليس له من ودعه نصيبٌ
ومن الحكم الرائعة في معلقة زهير قوله:

وأعلمُ مافي اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم مافي غدٍ عم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفرّه ومن لا يتقن القَتَمَ يَشْتَمُ(٢)
ومن يك ذا فضلٍ فيبخلُ بفضله على قومه يستغن عنه ويؤمم

١- الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري، ص ١٢٦، ط بيروت.
٢- يصنه ويحفظ.

ومن يؤف لا يذمم ومن يهد قلبه إلى مطمئن البر لا يتجمجم (١)
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء يسلم
ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حنده ذماً عليه ويندم
ومن لم يزد عن حوضه بسلاجه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم (٢)
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم (٣)
وهكذا يتحفنا زهير بخالص تجاربه وكان صاحب تامل وروية
وتهذيب، وقد سمي الرواة مطولاته بالحواليات لما رأوا فيها من جهد كما
سموا زهيراً والحطيئة وأضرابها (عبيد الشعر) لما شعروا عندهم من طول
الشفات والتنقيح والتجويد والتجبير وقد سمع عمر بن الخطاب بيته:
فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفيار أو جلاء (٤)
فأعجب به وتعجب من صحة القسمة وقال: لو أدركته لوليت القضاء
لحسن معرفته ودقة حكمه (٥)، كما أعجب بشعره فقال عنه:
* زهير شاعر الشعراء لأنه لا يعاقل في الكلام وكان يتجنب وحشى
الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه (٦).

- ١- لا يتجمجم: لا يضطرب.
- ٢- يزد: يدفع، ومن يظلم الناس: من انقبض عنهم وكف يده عن الامتداد إليهم
رأوه مهيناً ضعيفاً فاستطالوا عليه وظلموه.
- ٣- خليقة: طبيعة.
- ٤- أى يميناً أو منافرة إلى حاكم يقطع بالبينات أو جلاء وهو يرمان يجلو به
الحق وتنضح الدعوى.
- ٥- الصناعتين للمسكوى: ص ٣٤٢، ط الحلبي.
- ٦- العصر الاسلامي: شوقي ضيف، ص ٣٣٦.

والحق أنى مهما تحدثت عن شاعرية زهير فلن أوفيه حقّه من بيان
مقدرته التصويرية وكأنه الشجرة النهائية للجهود الفنية التي أودعها
الجاهليون أشعارهم، فهو من جهة قد صقل أسلوبه إلى أبعد غاية من
الصقل ومن جهة ثانية عنى بموسيقاه وألحانه فلا شذوذ فيها ولا نهاز
ومن جهة ثالثة فقد استتم فن التصوير بفرعيه من التشبيه والاستعارة.
الاعتذار: وهو درء المراء التهمة عنه والترفق في الاحتجاج على براءته
منها واستمالة قلب المعتذر إليه واستعطافه عليه.

بيئة الاعتذار وسبب ندرته قديماً: نشأ الاعتذار في ظل المديح منذ
تكسب الشعراء بمدائحهم في أواخر العصر الجاهلي، ولما كان في
الاعتذار مذلة للمعتذر ومطنة للكذب والضعف قلّ في الجاهلية هذا
الغرض ولا سيما عند العربي الذي يقطن البادية، إذ رأى فيه مظهراً من
مظاهر الخنوع والاستلام، ولما كان هذا يتعارض مع أنفته وكبريائه
وكرامته ندر أن وجدنا بدوياً يعتذر، وقد ورد قديماً إياك وما يعتذر منه.
فلما طأطأ العربي في بعض الحضرة رأسه تحت إغراء المنح والعطايا
وجرى لاهثاً وراء الملوك والأمراء مقدماً بين يديه تملقه ونفاقه في صورة
مدائح يشترى بها مايجود به عليه من المال ... عندئذ ضاعت قيمة الأنفة
بين ماضع في غمار حياته الجديدة فلم يجد في الاعتذار ماكان يجده
البدوي في باديته وحرص على أن يفتن في الوصول إلى قلب سامعه طلباً
لرضاه ...

ومن المسلمات التي شاعت بين المشتغلين بالأدب أن النابغة الذبياني هو رأس فن الاعتذار ومقتض بكارته ولكن هذا الحكم يحتاج إلى مراجعة، وأرى - إن أردنا تصحيح تلك المسلمة أن النابغة سلك مسلك أستاذه عدى بن زيد الذي سبقه، وتلك قضية تحتاج إلى بحث مستقل. ومن بديع اعتذارات عدى بن زيد للنعمان بن المنذر قوله وهو في سجنه:

ألا مَنْ يبلِّغُ النعمانَ عنِّي وقد تُهدى النصيحةُ بالمغييبِ
أحظيَّ كان سلسلةً وقيداً وغلا والبيان لدى الطيب
أتاك بأننى قد طال حبسى ولم تُشأَمِ بمسجونٍ حريب^(١)
وبيتى مقفراً إلا نساء أرامل قد هلكن من النحيب
بيادرنَ الدموعَ على عدى كشينَ خاتَه خرزُ الربيب^(٢)
فبعد أن أعلن عن إهمال النعمان له في سجنه وعدم المبالاة به عاد ليحرك في نفسه الإشتاق فوصف في إنكسار ما آل إليه بيته بعد غيبته ثم عاد ثالثة يرجو الصفح عما قد يكون أخذ عليه ويعلم عن تنازله لما أصابه من ظلم وضر:
فإن أخطأتُ أو أوهمتُ أمراً فقد يَهَمُ المصافى بالحبيبِ
فإن أظلمَ فقد عاقبتمونى وإن أظلمَ فذلك من نصيبى

١- الحريب: المملوك ماله.

٢- الشن: الخلق من كل أية صنعت من الجلد والربيب: المصلح.

فهل لك أن تدارك ما لدينا ولا تغلب على الرأي المصيب
فإني قد وكلت اليوم أمري إلى رب قريب مستجيب
ونلاحظ على المعتذر دائماً أن عاطفة الخوف تتداخل مع عاطفة
الشكر والرجاء وفي الأبيات المذكورة نرى الشاعر المصور البارِع
الصادق الأصيل الذي يمتح من نفس شاعرة.

